

مجلة إسلامية شهرية

العدد السابع – ذو القعدة ١٤٣٤

مشايـــخ الوقـــت
يسرا جلال

علمانيو الانقلاب.. خزي الماضي والحاضر
طارق منينة

مـــن الإمـام؟
محمد علي يوسف

سيـــد الكلاب الوديعة
محمود توفيق

هل يحرُم الخروج على الانقلابيين؟
حسام عبد العزيز

نحو ثورة على الإعلام
معتز رضا زاهر



علمانيو الانقلاب ... خزي الماضي والحاضر ٣
طارق منينة

كيف كانت رابعة؟ ١٥
جيلان ثروت

هل يحرم الخروج على الانقلابيين؟ ١٨
حسام عبد العزيز

من الإمام؟! ٣٠
محمد علي يوسف

مشايخ الوقت ٣٨
يسرا جلال

سيد الكلاب الوديعة ٤١
محمود توفيق

نحو ثورة على الإعلام ٤٦
معتز رضا زاهر

مذهب أهل الحديث في الخروج على ولي الأمر الجائر ٥٠
محمد براء ياسين

كيف أكون أديبًا؟ ٥٤
البشير عصام

صراع مع الشمس ٥٨
عمرو بسيوني

المدونة: http://alhorras.wordpress.com

فيس بوك: facebook.com/AlHorras

تويتـــــر: twitter.com/ALHorras

البريدالإليكتروني: horras.sh@gmail.com



الحمد لله وحده ..

لا يمكنك أن ترد واقع التجريف الثقافي وضحالة الوعي المنتشرة بين المسلمين اليوم إلى عامل واحد.
الظروف السياسية والاقتصادية، ومناهج التعليم، والأمية التربوية، وخنق الاستبداد للمجتمع ومحاصرته له=كل تلك العوامل وغيرها ساهمت في هذه النتيجة المحزنة والخطيرة في الوقت نفسه.

وساهمت الثورة المصرية والمتغيرات الاجتماعية والسياسية بعدها في زيادة واقع التجريف، وذلك بسبب التداعي المجتمعي تحت وطأة الحروب السياسية التي عاشها الناس خلال العامين الماضيين، خاصة مع انشغال كبرى الحركات الاجتماعية الإسلامية وغير الإسلامية في أتون السياسة الملتهب.

فسيلة المؤمن، الأشياء الصغيرة الفعالة، اجتماع النقط، طلب الفتح بطول الطَرْق، كل تلك المعاني هي ما يفتح للناس أفق الإصلاح رغم ضعف ما بين أيديهم من الإمكانات، وهي في الوقت نفسه ما يقطع عليهم باب العذر؛ إذ لا قعود حينئذ إلا من كسل وعجز.

بين صفحات هذه المجلة ستقابلك مجموعة من الأقلام تكسر الحدود ولا تعرف غير الإسلام رابطة تجتمع عليها؛ لتشترك في هم أساسي واحد هو محور اجتماعهم بقطع النظر عن مواطن اتفاقهم واختلافهم الأخرى؛ إنه هم الثقافة والوعي، وسبل إعادة إخصاب هذه الأرض المجرفة، واستثمار ما فيها من بقايا البذور ومكاثرتها، وتعاهدها بالسهر والري، وقتل ما قد يعرض لها من الآفات التي تريد اغتيالها قبل أن تؤتي أُكُلها.

لم تجتمع هذه النخبة لتحملك على موافقتها الرأي، وإنما لتحرضك على تجويد صناعة الرأي.
لم تجتمع هذه النخبة لتصنع منك نسخة منها بل لعلها لا ترجو شيئًا كرجائها أن تكون نسيج وحدك.
لم تجتمع هذه النخبة لتلقنك أفكارها، وإنما لتقيم لك أمثلة في طرائق إقامة الأفكار؛ لتقيم أنت صروح أفكارك.

الدين والوحي والفقه والوعظ والأدب والسياسة والفلسفة والاجتماع والتاريخ وكل ما له صلة بتجويد صناعة التفكر ستجدونه بين جنبات هذه المجلة، تعاملوا معه على أنه بذور منثورة، وتابعوا معنا ومع غيرنا ومع أنفسكم مثنى وفرادى، وارتقبوا وقت حصاد ثمار أنفسكم بعد هذا البذر الطويل، وآتوا حقه يوم حصاده، واشكروا لله واعبدوه.

وعلى الله قصد السبيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

هيئة التحرير



علمانيو الانقلاب
خزي الماضي والحاضر

طارق منينة

لقد حاول العلمانيون المصريون بعد سقوط الخلافة الإسلامية عام1924م، وأسر الخليفة عبد الحميد الثاني من قبل الانقلابيين، أتاتورك وعصابة تركيا الفتاة، خطف الدولة المصرية ثم التوغل في مؤسساتها السياسية والثقافية والاجتماعية، ونجحت محاولاتهم، إلا أنهم لم يستطيعوا إحلال العلمانية الشاملة في البلاد كما فعل أتاتورك بعد خطف الخلافة والخليفة.

لكنهم - واقعيًّا - اختطفوا وسرقوا دولة الإسلام في مصر، وحولوها لدولة تحمل الناس حملًا على التحاكم لمبادئ القوانين الغربية، للقرن التاسع عشر، في نفس الوقت الذي حاولوا فيه المساس بالإسلام، عقيدة وشريعة، دينًا ومنهج حياة، سنة وسيرة، حتى صارت العلمانية الجزئية تقود البلاد مع إرث قوانينها الوضعية الاستعمارية، التي كان الاستعمار قد وضع لها موطئ قدم في الدولة، والسياسة والقانون، والتعليم والثقافة.

ولم يستحِ أولئك العلمانيون من التعامل معه في البداية؛ فوضعوا -نيابة عنه- الخنجر المسموم في جسد الأمة الضعيف، بعد سقوط ما أسموه بـ "الرجل المريض"؛ فأخروا تقدم الأمة إلى التمدن والحضارة كما كانت في أوج عزها؛ بل منعوا تقدمها، وكرّسوا لأمية بشعة في كافة مناحي الحياة العلمية، اللَّهُمَّ إلا في مجال الأدب والفكر؛ فجعلوها علمانية التوجه علمانية المعرفة، أما باقي المجالات العلمية فقد وضعوا الحوائل دون فاعليتها الضرورية؛ فكانت في الغالب مسجونة في الجامعة لا تتعدى أسوارها إلا في النزر اليسير.

فانهارت مقومات الإنسان على إثر ذلك؛ فكان الفقر والمرض والعشوائية والاستبداد، وتوقفت العلوم عن التطور والنمو، وفسدت الذمم وتغيرت العقول وانتشر الفساد في كثير من الأعمال والشركات والمؤسسات.

وصار مدح الاستعمار، والتحقير من الذات، علامة على التقدم والثقافة، خصوصًا الاستعمار الفرنسي النابليوني الذي أقام له فاروق حسني وزير ثقافة مبارك المنتديات الثقافية والفعاليات الأدبية، وهرع إليه الكتاب العلمانيون وكأنهم يجتمعون على وليمة أو ذبيحة!

إلا أن الله عز وجل تكفل بتحقيق وعده للأمة التي عانت من ويلات الاستبداد وحروب الاستعمار الثقافية والمادية.

قطيع العلمانية في خدمة الدكتاتورية:

لقد استخدمهم الاستعمار واستخدموه، كما استخدمتهم السلطة واستخدموها، عاشوا بالدكتاتورية وعاشت الدكتاتورية بهم، وإن التاريخ ليحكي لنا الكثير من المشاهد المخزية المؤلمة، إلا أننا سنقتصر على عرض لمحات تبدأ من عصر ما بعد جلاء الملك فاروق وتولي العسكر سلطة الدولة، وقد ظن الناس بهم خيرًا.



فعن الدولة الناصرية نقول بأنه قد تم تبني النموذج الاشتراكي، كما تم التحالف مع الجماعات الماركسية والشيوعية بعد تدجينها وإخضاعها رغبة ورهبة. برز النموذج الماركسي - الاشتراكي- اليساري في تلك الأثناء وتحالف مع الدكتاتورية، التي تخفت في قلوب ضباط كان بعضهم يتبنى النماذج الغربية عقيدة ومنهجًا للتغيير، ظن كثير من المتغربين الماركسيين أنهم باستخدام السلطة والخضوع لها سوف يقيمون الاحتفال قريبًا مع "المركز" لتخليد الماركسية على جثة الإسلام وإفنائه!

فتم تبرير أعمال تلك السلطة الغاشمة وموقفها من الإسلام كمنهج للحياة، وكان العبيد في التمهيد أقطاب بارزون في الحركة الماركسية، ومثاله: الدكتور محمود أمين العالم، المؤمن بالمادية الجدلية، الرافضة للوحي والدين، والغيب والقرآن، والرسالة والشريعة.

يقول أمين العالم ص129، في كتابه (الفكر العربي بين الخصوصية والكونية):

"فالمادية التاريخية والمنهج المادي الجدلي يشكلان وحدة واحدة، ويعبران عن رؤية جماعية تغييرية للتاريخ، نابعة من القراءة العلمية للتاريخ نفسه". ويقول عن ناصرية الدولة التي خدمها في القمة رغم استبدادها إنها: "فجرت وأشاعت وعمقت مفاهيم وقيمًا تنويرية عقلانية وعلمانية جديدة في المجتمع كله، وليس بين النخب المثقفة وحدها". [الفكر العربي بين الخصوصية والكونية، ص 215] وسيأتي من كلامه مدحه لها لتمريرها الأفكار الغربية.

العلاقة الآثمة بين الدكتاتور والماركسي العلماني:

لقد عُين محمود أمين العالم رئيسًا لمجلس إدارة الهيئة المصرية العامة للكتاب، وأصبح مسئولًا في الأمانة المركزية للتنظيم الطليعي الاشتراكي الذي أسسه عبد الناصر!

وكان مسئولًا عن إعداد الأوراق التثقيفية، ومع إيمانه بالاشتراكية فإنه عمل داخل نظام دكتاتوري كان قد قمعه من قبل، وبعد العلاقة الآثمة مدحه وعمل لديه، انتظارًا لتطور الأمور إلى تمكين الفكر المادي في بلاد الإسلام، لم يجد حرجًا من مدح عبد الناصر وتبرير دمويته ضد الإخوان وغيرهم، تمامًا كما فعل الدكتور مصطفى حجازي اليوم في حكومة الانقلابيين الجدد، وسيأتي الكلام عنه.

قال جابر عصفور في مقال بعنوان (محمود أمين العالم.. الرمز والقيمة): "لقد بدأ العالم حياته الفكرية الحقيقية بالانتماء إلي الفلسفة الماركسية... وما أسرع ما شغل مناصب قيادية متعددة: رئاسة مؤسسة الأخبار, ومؤسسة المسرح, وهيئة الكتاب إلخ... محمود العالم كان أول من قدم البنيوية إلي القراء العرب, وذلك في ذروة اشتعال المعركة بين البنيوية وأعدائها في الحياة الفرنسية, وكان ذلك في المقالات التي واصل نشرها في مجلة المصور في الستينيات, وقد تعلمت منها معارفي الأولى عن أسماء رولان بارت ولوسيان جولدمان وغيرهما". [الأهرام، 19 يناير 2009م]

في المقابل يمدح العالم عصفورًا بقوله عن كتاب عصفور (هوامش على دفتر التنوير) - وهو كتاب مليئ بالهجوم على الفكر الإسلامي والحقائق الإسلامية والإسلاميين - إنه:

"ثمرة معركة حية محتدمة اليوم في حياتنا السياسية والثقافية العربية عامة والمصرية خاصة... يقرر بحسم أن "استخدام الثرات إيجابًا لا يختلف عن استخدامه سلبًا، كلاهما يضع الجزء موضع الكل، ويعيد إنتاج الجزء الذي يصبح هو الكل؛ بل يضفي شرعية على الحاضر باسم الماضي... ونكاد نتبين من العديد من نصوصه أن كل عودة إلى الأصل القديم تتعارض مع المشروع التنويري الليبرالي؛ بل لعل ذلك أن يكون في رأيه من الأسباب الأساسية لانتكاسه". [الفكر العربي بين الخصوصية والكونية، ص211]

وفي (ص 218) يقدم التحية: "وتحية في النهاية للدكتور جابر عصفور على كتابه الجاد القيم، الذي يعد خطوة كبيرة في طريق طويل".

تحالف العلمانية مع رأس المال الفاسد في عصر السادات ومبارك:

أيضًا، مُلئت دهاليز ومؤسسات السياسة والثقافة والإعلام والمجتمع، أيام السادات ومبارك بمن يدعون بالمثقفين العلمانيين، المتسترين وغيرهم، من الذين كانوا يقدمون ترضيات للجماهير في الجرائد، بينما كانوا في كتبهم ومشاريعهم يحاولون المساس بالإسلام والقرآن والرسول، ذلك وهم يقومون بوأد تيارات النهضة الإسلامية وهي تقوم بالدفاع عن حقوق الإنسان والمجتمع.

لقد اعتلى كثير من أولئك الجبناء والمنتفعين المناصب الثقافية، ورئاسة الصحف والمجلات، والمؤسسات والهيئات، وكان على رأسهم كبير الحاقدين على الإسلام كمنهج وعقيدة وشريعة، وهو الدكتور جابر عصفور.

الذي مدحه محمود أمين العالم منذ هنيهة؛ ذلك الرجل المعاصر الذي كان مقربًا من الإدارة السياسية الدكتاتورية، وحلقات الوصل والفصل فيها، حتى إنه نجح في تمرير مجموعة من المشاريع لعلمنة الفكر والثقافة، التي نُفذت فعلًا، مسابقًا الزمن في صناعة تغيير أصبح يتسارع بنشاط مخيف، في محاولة أخيرة لاختراق العقل المصري، عن طريق نشر الكتب المترجمة على نطاق واسع وبأرخص الأسعار (من أموال الشعب)، وكذلك طبع كتب العلمانيين العرب، أو كتب الدفاع عنهم؛ ومن ذلك كتاب قدم مساهمة في تمرير العلمانية ودعم الدكتاتورية، وهو بعنوان موحي: (ضد التعصب)؛ لقد كتبه الدكتور جابر عصفور نفسه دفاعًا عن مشروع نصر حامد أبي زيد، القائل إن القرآن منتج ثقافي أسطوري ترجع أصوله إلى المعرفي التاريخي العربي وغيره من ثقافات الشرق القديم الأسطورية!

أما المدهش في الكتاب فهو عرض عصفور دفاع الكاتب العلماني المتهكم على الرسول في كتابه (فترة التكوين)، وهو المحامي خليل عبد الكريم، عرض دفاعه عن نصر حامد أبي زيد، وأيضًا عرض كلام الكاتب الماسوني المشهور بعدائه لتيار النهضة الإسلامي، وهو رئيس سابق لمحكمة أمن الدولة وصاحب الكتب التي تقدح في القرآن والصحابة والشريعة وما أسماه بالإسلام السياسي، وهو المستشار محمد سعيد العشماوي، وقد قمت بالرد على العشماوي في كتابي: (أقطاب العلمانية ج2)، وردّ عليه أيضًا الدكتور محمد عمارة في كتابه: (سقوط الغلو العلماني).

صدر كتاب عصفور عن مكتبة الأسرة برعاية زوجة الطاغية حسني مبارك، وهذا يعني أن أموال الدولة المصرية التي تجمع من مصادر شتى، ومنها ضرائب المصريين، تمول هذه المشاريع والكتابات التي تحاول خلخلة الوعي المصري وعلمنته، شعوريًّا وفكريًّا، إعلاميًّا وثقافيًّا.

تحالف الانقلاب مع الليبرالية العلمانية:

رأينا أيضًا كيف أن حكومة العسكر قبل الانتخابات التي جاءت بالرئيس محمد مرسي، قدمت جابر عصفور ليكون وزيرًا للثقافة، بعد أن كان في دولة مبارك رئيسًا للمجلس الأعلى للثقافة، إلا أنه سرعان ما تُخلي عن المهمة، كذلك رأينا أن الانقلابيين صعدوا الدكتور مصطفى حجازي، المحلل الاجتماعي المتخذ من رؤية منهجية الجدلية المادية طريقًا للتفسير، ليتحدث باسمهم، مخاطبًا الداخل والخارج بلسان الدمويين.

وقد أهدر مصطفى حجازي الكرامة الإنسانية التي كثيرًا ما تشدق بالدفاع عنها في كتبه على مذابح أسياده الانقلابيين؛ فعبد نفسه لثلاثة أنماط من الهيمنة التي كان قد كتب ضدها باعتباره مفكر جدلي (السلطة المستبدة - الهيمنة الخارجية - العصبية - أنظمة القمع والتحريم!)، وهو الذي طالما أدانها في كتبه.

وبقي له من الأنماط الأربعة التي حذر منها في كتبه نمط واحد وهو (السلفية)؛ فهذه بقيت مغضوب عليها عنده؛ بل برر قتل أهلها كما شاهدنا ذلك في أحاديثه للشعب المصري ولقاءاته مع بعض القنوات الأجنبية، لقد أهدر الإنسانية وهو يقوم بتبرير عمليات الدمويين في قتل وحرق وخنق وخطف أهل (رابعة) (والنهضة) وغيرها من الميادين، بينما كان يخاطب الغربيين بما يخافون منه؛ فهو يضرب على وترهم الذي صنعوه؛ فيقول لهم إن الإخوان قد حرقوا الكنائس وهم من يقتل الناس في الشوارع! ومع ذلك بدا على المذيعة الأجنبية في الـ(بي بي سي) الشك في كلامه.

وهكذا دفعته المادية إلى الدموية، والعلمانية إلى التحالف مع الدكتاتورية؛ فالرجل اتخذ منهج المادية الجدلية في هدم الروح البشري الذي دافع عنه بكلمات يهدمها منهجه في الحياة، كما رفض حقيقة الغيب في محاولة منه للقدح في العقيدة وجدواها في الحياة عن طريق رمي الجماعات الإسلامية السياسية بالإيمان بالغيب، كعادة أمثاله في الإلتفاف والمداورة، ولا شك أن لجابر عصفور تأثيرًا قويًّا على اتجاهات كتاباته، قال حجازي وكأن الكاتب عصفور: "أما علم الغيب فنقصد به استغلال الدين وسيطرة رجاله على الحكم بالغيب تفسيرًا وتأويلًا، واحتكارهم لهذه السلطة المعرفية من أجل ترويض الناس من خلال كل آليات التحريم والتحليل المعروفة، ولقد وصل الأمر بهم إلى تكفير كل فكّير، ومنع التساؤل والتفكير التحليلي النقدي، الذي يوصف بالزندقة والبدع؛ لصالح الاتّباع المحض".

علمانية تبيح سفك الدماء لأجل مشروعها اللا إنساني:

بعد صعود تيار النهضة الإسلامية لسُدة الحكم، وتولي الرئيس مرسي لإدارة البلاد، ومحاولة إفشاله من خلال إعاقة كافة الإدارات والمشاريع عن الفاعلية من قبل الدولة الخفية التي لم تسقط بسقوط الطاغية مبارك -ظهرت كتب علمانية تدفع في اتجاه الثورة على الدولة التي انتخبها الشعب المصري، وتدعو إلى التمرد، والتحريض على الإسلام ورجالات الفكر الإسلامي، ونتائج الانتخابات التي تدافع عليها المصريون لاختيار أول برلمان مصري معاصر غير مزور، وأول رئيس مصري لم يأتِ على ظهر دبابة وإنما باختيار شعبي عن طريق الانتخاب الحديثة، وهي الاقتراع وصندوق الانتخابات، تلك العملية التي طالما تشدقوا بأنها هي الفيصل الوحيد في اختيار نواب الأمة ورئيسها.

ظهر هذا التيار العلماني بكتاباته الدموية داعمة مواقفها بفلسفات فاشية ودموية وصدامية؛ وذلك لما رأوا أن الشعوب العربية اختارت الإسلام حكمًا وقيمًا؛ فبدا لهذا الخطاب العلماني الجامح والفاقد للعقل أنه لا بد من كتابات تحريضية دموية؛ فالجماهير الإسلامية لم تلق لأصحابهم بالًا، بل لم تعرفهم أصلًا، وكيف تعرف أناسًا يريدون هدم أصول دينهم ودنياهم، وهي التي أخرجت للعالم حضارة علمية - ايمانية - روحية ومادية، استفادت منها الدنيا كلها، وحتى يوم الناس هذا.

راحت تلك الكتابات العلمانية تفسر هذه الثورات المدهشة بتصورات علمانية ممتلئة بالأحقاد الاستشراقية القديمة والحديثة، وعلى إثرها بدأت التصريحات الواضحة بعلمنة الدولة، ولا يخفى على القارئ مقولة (حلمي النمنم) في المؤتمر المشهور عن مصر والعلمانية، وأنه يريدها علمانية ولو بالدم! قائلًا إنه لا توجد ديمقراطية بدون دم! وطبعًا فالرجل يتكلم عن الدم الإسلامي!

أيضًا ظهر رئيس الوزراء الرأسمالي الانقلابي (الببلاوي) على قناة (أ بي سي) الأجنبية، وسرعان ما بدأ بتبرير قتل نظامه الدموي للناس في ميداني رابعة والنهضة بقوله: "هناك أوقات استثنائية ترتكب فيها الأعمال الوحشية"!! فهل يُعقل هذا؟!

إن مصطفى حجازي والببلاوي وجهان لعملة دموية انقلابية واحدة، يؤمنان بالفكر الغربي، ويبرران أعمال القتل الوحشية التي جرت من قبل سلطة الانقلاب، التي يعملان معًا في سبيل خلودها.

وقد كان دأب أمثال هؤلاء قديمًا - منذ تغول الفكر الماركسي في بلادنا - أن يحكموا على الأحداث هزيمة أو نصرًا بالمعايير العلمانية الخاطئة؛ فسواء كان الأمر هزيمة للعرب كما كان في عام 67 على يد نظام تغرب في الاشتراكية ودكتاتوريتها، أو كان بعد نصر ثورات أمتنا لبداية الألفية الثالثة؛ فإنهم كانوا ولا يزالون يرمون الإسلام بالتخلف وأنه هو سبب الهزيمة، أوالمعيق للتطور والتقدم؛ كصادق جلال العظم، في كتاب (نقد الفكر العربي)، وكتاب (النقد الذاتي للهزيمة) عن هزيمة 67م.

وبمناسبة هذا السياق نذكر قول محمود أمين العالم عن (العظم) وافتراءاته على الإسلام، وأنه سبب هزائم الأمة بقوله: "كتاب صادق جلال العظم (النقد الذاتي للهزيمة) ... لعل هذا الكتاب من أوائل الكتابات الموضوعية التي أخذت تكشف المفاهيم السلبية المسيطرة على الفكر العربي نفسه". [الفكر العربي بين الخصوصية والكونية، لمحمود العالم ص57].

أو يرمونه بأن أهله هم سبب انحراف أهداف الثورة بزعمهم؛ كحازم صاغية وكتابه (الانهيار المديد)، ومنهم من حاول تشويه مفاهيم الإسلام فيما يخص علاقته بالدولة والسلطة، وكذلك تشويه صورة الدعاة إليه؛ كما في كتاب (سياسات الأديان) لنبيل عبد الفتاح، وقد صدر عن مكتبة الأسرة عام (2003م) برعاية زوجة الطاغية مبارك، التي مررت للعلمانيين كثيرًا من أباطيلهم، بيد أنه حاول مغازلة رفاقه والدكتاتورية بكتابه (النخبة والثورة، الدولة والإسلام السياسي والقومية والليبرالية)، وهذا الأخير صدر عام 2013م عن دار العين للنشر، الإسكندرية، وهلل له الليبراليون في ميدان التحرير بعد أن أعلن أنه سيوزع عليهم هناك.

أيضًا صدر لهاشم صالح تلميذ الهالك (أركون) كتابه (الانتفاضات العربية في ضوء فلسفة التاريخ)، وهذا الكتاب يعد الأخطر من تلك الكتب التي دعت إلى الدم، وأنه لا بد منه للتخلص من الأصول الإسلامية وأهلها.

وهو الذي أخذوا عنه تلك الفكرة الدموية وصرحوا بها، يقول هاشم صالح: "...هل يعلم هذا العبقري أن تطبيق الشريعة مستحيل في العصور الحديثة؛ لأنها مضادة في معظم بنودها لكل إعلانات حقوق الإنسان والمواطن". [الانتفاضات العربية، (ص211)]، ويقول عن المسلمين إنهم: "لا يستطيعون أن يفهموا أن هناك عدة طرق تؤدي إلى الله لا طريقًا واحدًا أو دينًا واحدًا... أن تخرج من كل الأديان والمذاهب وتعتنق الفلسفة التنويرية الكونية دينًا". [الانتفاضات العربية على ضوء فلسفة التاريخ، (ص264)]

ومعلوم أن هاشمًا ومعه أركون قاما بنقد القرآن بصورة تبين ضحالة ما هم عليه من أوحال الفكر الغربي، وأدبيات الفكر العلماني لما بعد الحداثة، وضحالة وتهافت نقده المنتفخ بهزيانات العقل المنبثق عن مادية متوحشة في إهابها الناعم، وقد زرعت الشقاء للإنسان وقتلت وهي تحتل الكيان الإنساني، روحه وأشواقه.

وفي كتابه هذا قال المفكر الشديد الحقد على أصول الإسلام، باستخفاف وتهكم واضح: "وأخيرًا أنا لست ضد رجال الدين في المطلق، بشرط أن يتركونا نشرب عرقًا وويسكي، ونسمع الجاز والموسيقى، ونغازل الآنسات والسيدات وبقية الحريات...هكذا تلاحظون أن إيماني مخفف إلى درجة أنه يكاد يتبخر في الهواء". [الانتفاضات العربية على ضوء فلسفة التاريخ (ص95)] ويخبرنا أنه من: "الأصولية العلوية الشيعية التي تربيت عليها في طفولتي". [نفس الكتاب (ص 96)]

ويقول وهو في حالة نشوة خرافية كالتي عاشها (العظم) وأمثاله وهو يعلنون خلود الماركسية في ستينات القرن الماضي - وأين هي الآن؟ إمبراطوريتها المخيفة؟ الإتحاد السوفيتي؟ الإجابة إنها في مزبلة التاريخ - قال: "نهاية التاريخ هي النظام العلماني الديمقراطي الحديث". [نفس المرجع، هامش، (ص247)] وهكذا تحولوا بقدره قادر إلى عرافين يتكلمون عن الغيب!!!

لقد نشر هؤلاء العلمانيون أحقادهم العنيفة ضد تيار النهضة الإسلامية، وما يزالون إلى لحظتنا هذه؛ فهذا التيار المتنامي هو الحائل دون أهدافهم النفعية المادية؛ فهو الأصل الأصيل المتأصل في الأمة، إنهم يريدون أن يخرجوا الأمة من دينها وقيمها وآدابها، إلى علمانية ولائكية ولا دينية ولا أخلاقية، تجعل الدين شعائر لا شأن له بقيادة الدنيا أو سيادة عمليات وتقنينات التشريع للناس، من خلال اجتهادات بشرية تنطلق من روح وقيم وشرائع هذا الدين العظيم، الذي رأوا إنتاجه الخلقي والعلمي، الإنساني والمادي، في حواضر الإسلام في الشرق والغرب، بيد أن السيادة العليا بالنسبة لهؤلاء الحمقى يجب أن تكون للعلمانية، أي لعقول الفلاسفة الغربيين وأصحاب المصالح والمال والقانون والفكر والسياسة، بكل ما لها من طفرات وتحولات في عالم الإنسان والمجتمع، وعالم السياسة الكونية والاقتصاد، والأخلاق والثقافة، وغير ذلك من عوالم الإنسان المعاصر، من تعليمية، وإعلامية، وقيمية، وواقعية (إباحية وتجارية لا ضوابط فيها).

إنها الحرب على الإسلام وهي سبب الحرب على تيار النهضة الإسلامي:

بعد أن يذكر السيد ياسين – الذي تستعين به حكومات ومؤسسات مختلفة المشارب – سبب رفضه للإسلام من خلال تطوره الفكري العلماني، نراه يذكر كلمة قال مثلها المستشار العشماوي قديمًا، قال ياسين: "في ضوء ذلك كله يتبين المنطق الكامن وراء مقالاتي وأبحاثي في السنوات الأخيرة ضد تيار الإسلام السياسي". [العالمية والعولمة، للسيد ياسين، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، يناير2000، (ص24)]



نذكر هذه المقولة الخطيرة للسيد ياسين لنبين السبب الأصلي للحملة على تيار النهضة الإسلامية. والسؤال الآن: ما هو المنطق العلماني القائم وراء حرب ياسين وأمثاله (جابر عصفور - القمني - خليل عبد الكريم - هاشم صالح - أركون...إلخ) على تيار النهضة الإسلامي عامة؟ ... **مقالنا هذا يجيب على السؤال بالتوثيق.**

يقول السيد ياسين: "وأذكر أنني في موجة شك عميق كتبت مقالة أبرزت فيها عدم قناعتي بقصة خلق العالم كما يرويها القرآن". [العالمية والعولمة، السيد يسين]

وقال: "بعد تأمل عميق في نظام الزكاة لم أقبل فكرة أن يتصدق إنسان على إنسان، وقلت لنفسي: بأي حق يتفضل الغني على الفقير ببعض ماله؟ وألا يعطي له ذلك مكانة عليا بالنظر إلى الفقير؟ ولماذا لا يكون رفع مستوى الفقير مسئولية الدولة؟ بحيث يحصل الفقير (...) على حقه باعتباره مواطنًا، لا باعتباره مجرد فقير محل للصدقة والإحسان؟ لم أقتنع بنظام الزكاة، وفي نفس الوقت لم أجد إجابة شافية على سؤالي الرئيس: لماذا التفاوت الطبقي في المجتمع؟ كان ذلك أحد أسباب خلافي مع النسق الفكري للإخوان المسلمين". [العالمية والعولمة، السيد ياسين، (ص18)]

وبعد أن يذكر (رحلة البحث) وطرق باب الماركسية وعثوره على المنهج العلمي - بحسب زعمه - لتفسير نشوء المجتمعات وتطورها في الماركسية، في الوقت الذي رفض فيه كما يقول بعض نظرياتها وأهمها ديكتاتورية البروليتاريا (ص 19)، راح ينتقل من الاشتراكية الإنسانية إلى الاقتناع بمبدأ "النسبية الثقافية"، انتقل من خلال ذلك إلى "الكونية" و"سقوط الأنساق الفكرية المغلقة" (ص23)؛ فالنسبية الثقافية وسقوط الأنساق الفكرية والإيمان بالكونية التي نشأت في ظل الثقافة الغربية المادية التابعة لتطور مجريات الأمور في الغرب هي آخر ما هو عليه السيد ياسين، بعد رفضه للإسلام وشريعته وعقيدته. ومن هنا يقول بعد أن عرض تحولاته: "في ضوء ذلك كله يتبين المنطق الكامن وراء مقالاتي وأبحاثي في السنوات الأخيرة ضد تيار الإسلام السياسي". (ص 24)

وقد تبنى السيد ياسين مفهوم "الطريق الثالث" الذي يتبنى النموذج الحضاري الجديد كما قال، والقيم الاجتماعية الجديدة التي ترد "إلى فكر ما بعد الحداثة" (ص30)، والذي إذا اهتم بالروح فإنه يهتم بها على أساس هذا المنهج العلماني، فالاهتمام "بالأمور الروحية والتي تأخذ أشكالًا شتى ليست بالضرورة تطبيقًا لقواعد الأديان المعروفة". (ص 30)

ولذلك كله استدعت قناة (سي بي سي) في برنامج خيري رمضان السيد ياسين لتحليل الجولة الثانية في الاستفتاء على دستور مصر، بعد ثورة 25 يناير، وقبل الانقلاب الدموي لعبد الفتاح السيسي وعصابته، من غير أن يعرف الناس ما هو المنطق الكامن وراء تشويهه لتيار النهضة الإسلامية! ولا يخفى على القارئ أن القناة تعلم من هو السيد ياسين من موقفه من الإسلام وشرائع الإسلام، التي أهان منها في كتابه المسمى العالمية شريعة الزكاة، وقال إنه ترك الإسلام لأنه لم يقتنع بهذه الشريعة.

الفرصة السانحة على رأي عنوان كتاب لـ(كيسنجر):

كلنا يعلم أن العلمانيين والليبراليين استخدموا بشكل ذكي ماكر كل الإشاعات التي أطلقتها الماكينة الإعلامية المصرية وتوابعها في كثير من القنوات الخاصة؛ لكي يحطموا المثال في النهضة الإسلامية ويجهضوها؛ بحيث يفقد الناس الثقة في النموذج الإسلامي، الذي حاول الاستشراق الغربي - الذراع الفكري للإستعمار - لقرون مضت وحتى اليوم إسقاطه بدءًا من الرسول صلى الله عليه وسلم والسيرة والصحابة والتاريخ والقادة الكبار للأمة؛ من الشافعي مرورًا بصلاح الدين وقادة العمل الإسلامي حتى يومنا هذا.

بيد أن ما شد انتباهي في هذه الشهر الأخير بين ديسمبر وبداية يناير أن هذا الإعلام المشبوه استضاف قادة الفكر العلماني، ومتلقفي النظريات الإلحادية وإعلان الإيمان بها، أو المحللين لتاريخ الإسلام من خلال فكر مادي، أو الحاقدين على أصحاب التوجه الإسلامي المرتبط بأصول الإسلام ومبادئه وتشريعاته، والجمهور لا يعرف شيئًا عن الضيوف!

كما استدعت (لميس الحديدي) أيضًا في برنامجها (هنا العاصمة - حلقة 2013-1-7) الدكتور يوسف زيدان صاحب كتاب (اللاهوت العربي وأصول العنف الديني)، الذي أرجع فيه الوحي القرآني إلى منطق صحراوي وبيئة جدباء! وهو من قال عن القرآن إنه: "الاستعلان النهائي للاهوت العربي". [انظر اللاهوت العربي وأصول العنف الديني، ص(146)]

يقول زيدان: "ومعروف أن السمات الثقافية العامة المميزة لما يمكن أن يسمى العقلية العربية (!) هي سمات، مهما اختلفت حولها الأحكام والرؤى، تمتاز في نهاية الأمر بأنها ثقافة عملية (برجماتية) لا تنزع إلى التفلسف النظري العميق، ولا تقبل فكرة الاندماج والتداخل بين الآلهة والبشر (يقصد الموجودة في منطقة مصر واليونان مثلًا)، وتعتقد بوجود كائنات وسيطة بين العالمين الإلهي والإنساني؛ كالجن والعفاريت والمهان والأنبياء والملهمين، وهي عقلية جمعية لقوم لطالما تحدوا عوامل الفناء المحدقة بهم؛ كالصحراوات الشاسعة، والأسفار الطويلة المهلكة، والحروب الداخلية والدولية، والخوف من المجهول الكامن في الغيب الآتي، وكان ذلك نقيضًا لطبيعة العقلية الجمعية للمصريين واليونانيين القدماء؛ حيث الأرض الخضراء، والأرض المنتظمة، والشعور العام بأن الآلهة قريبة من البشر". [اللاهوت العربي وأصول العنف الديني، (ص87)]

وفي (ص 85-84) يتكلم عن الوثنيات في منطقة الهلال الخصيب، التي تصورت إلهًا مفارقًا يمنح شرائع في ثقافة ما قبل السيادة العربية -يقول- وأن ثقافة المجتمعات في منطقة الهلال الخصيب كانت تحتفي بالحكماء من البشر وبالكهنة الملهمين من الآلهة، وهؤلاء جميعًا كانوا في وعي العرب بمنزلة أدلاء، يعرّفون الناس بالإله، ويملئون المسافة الهائلة الفاصلة بين اللاهوت والناسوت، بعيدًا عن النظريات الفلسفية المعقدة (مثل نظرية الفيض عند أفلوطين) وبعيدًا عن أي ادعاء عن هؤلاء الوسطاء بأنهم والله شيء واحد. وقد اشتهر كثيرون من هؤلاء الوسطاء قبل الإسلام؛ فمنهم مخبرون يسخرون الجن، ومنهم عرافون يستطلعون أخبار السماء، ومنهم أنبياء عرب خُلص؛ من أمثال صالح وهود، وقد اشتهر قديمًا من هؤلاء الحكماء والأنبياء أحيقار (وزير الملك سنحريب) - التي تشابه سيرته وأقواله التي عثر على نسخة آرمية منها يعود تاريخ كتابتها الى القرن الخامس قبل الميلاد - ما نراه في الكتاب المقدس من سفر النبي يشوع بن سيراخ، وما نراه في القرآن الكريم من وصايا لقمان الحكيم الذي اقتحمت(!) سيرته وأقواله الحكيمة لابنه قلب السورة القرآنية المسماة باسمه، قاطعة بحدة بالغة السياق المخبر عن (الله) في الآيات السابقة عليها مباشرة والتالية لها؛ فكأنها نص اقتحم النص فجأة". [اللاهوت العربي ص 85]

واستدعت (منى الشاذلي) في برنامجها في بداية 2013م صاحب كتاب (السلطة في الإسلام، العقل الفقهي السلفي بين النص والتاريخ)؛ لكي يشارك ويدلي بدلوه في قضية القانون الإسلامي، وطبعًا منى الشاذلي ومن وراء برنامجها واختياراته يعلمون مغزى فكر هذا المستشار.

واستضافت (لميس الحديدي) كاتب خطابات الرئيس عبد الناصر، وتكلم الرجل بشيء من الزهو والاعتزاز بالنفس والغرور التاريخي عن الإخوان، وتسلل من خلال ذلك إلى الطعن فيهم والتهكم منهم ومن الرئيس محمد مرسي، طبعًا لميس الحديدي ومن استدعوا محمد حسنين هيكل إلى برنامجها يعلمون تمامًا مدى الحقد الدفين الذي يكنه هذا الصحفي للنهضة الإسلامية عامة والإخوان خاصة، ولا شك أن الرجل شارك في عملية قتل واعتقال الإخوان، وعمليات إقصاء القيم والمبادئ الإسلامية من الدولة الناصرية، وشارك في عمليات التهكم على كل من له صلة بشرائع هذا الدين العظيم، وهو الذي كان سندًا إعلاميًّا وفكريًّا لعبد الناصر ولنظامه، ولذلك استخدمته قناة لميس الحديدي من ضمن الحملة على - ليس الإخوان فقط - وإنما على النهضة الإسلامية السلفية عامة.

المتخفي الأحمق:

ومن الإعلاميين الذين نشطوا أخيرًا وبقوة في الحرب على التيار الإسلامي كان (إبراهيم عيسى)، الذي عظم في كتاباته منهجية (صادق جلال العظم)؛ ذلك الملحد الذي زعم في كتابه (نقد الفكر الديني) بعد هزيمة 67، أن الإسلام هو سبب الهزيمة، وأن العلم والإسلام يتعارضان، ثم بعد عقود راح (العظم) يكتب سابًّا للنبي في أكثر من ألف صفحة من كتابيه: (ذهنية التحريم) و(ما بعد ذهنية التحريم)، ويأتي إبراهيم عيسى ليدافع عنه في كتابه (أفكار مهددة بالقتل من الشعراوي إلى سلمان رشدي).

بل ويقول عن العظم المدافع بكتابه (ذهنية التحريم) عن سلمان رشدي، بأنه محام ومفكر كبير، محام عن قضية سب النبي طبعًا: "أما المحامي - أو الذي أعتبره كذلك - فهو مفكر سوري كبير، اسمه صادق جلال العظم، من مواليد دمشق عام1934... له 12 كتابًا... وأحدث كتبه بعنوان ذهنية التحريم". [أفكار مهددة بالقتل من الشعراوي إلى سلمان رشدي، لإبراهيم عيسى (ص104)]

المدهش في الفصل الذي عقده عيسى لسلمان رشدي في كتابه هذا، أنه بينما يمدح العظم فإنه يهين الأمة ويتحرقها كعادته؛ فيسمي اعتراضها على رشدي وتصويره للنبي وزوجاته بأشنع الأوصاف، فيصفه بأنه: "الهجوم القطيعي (...) والحشد والتعبئة تجاه أمر بعينه من سمات مجتمعنا وسبب من أسباب تخلفه". (ص105) تناسى عيسى هذا الكلام وهو يحرض الناس على الانقلاب ضد السيد مرسي ونتيجة الانتخابات، ويقول: "أول ما فعله الكاتب صادق جلال العظم أنه فتح ملفات المقالات التي كتبها نقادنا وأساتذتنا الكبار عن آيات شيطانية وسلمان رشدي، وهي فضيحة رسمي وبجلاجل". (ص106)

المدهش أن إبرهيم عيسى يخفي عن القراء أن العظم قد شتم الرسول في كتابه هذا، وأيضًا في كتابه المكمل وهو (ما بعد ذهنية التحريم) مئات المرات، بل قال العظم في مئات النصوص ما المشكلة أن نتهكم ونهزأ بالنبي محمد ونصوره في أبشع صورة كما فعل سلمان رشدي؟ وقال إن احتقار النبي ضرورة حداثية للانعتاق من أسر الدين والخرافة، وقال كلامًا كثيرًا في هذا يتجاوز الألف صفحة، وليس صفحة واحدة، وإبراهيم عيسى لم يقل شيئًا عن ذلك وإنما مدح الرجل، وذكر أنه كان بطلًا في الرد على من عاب منهجه هذا وعمل لهم فضيحة رسمي وبجلاجل!

من جهة أخرى، يقول عن سلمان رشدي: "إنه الاسم الذي يصيب كثيرين "بالأرتيكاريا" (ص23)، ويصف الذين اعترضوا عليه بأنهم فعلوا زارًا جماهيريًا (ص103): "لقد كان المتطرفون يبحثون عن قضية لاستعراض العضلات وإثبات الذات ونفخ القوى (!) فلجأوا إلى المظاهرات". (ص110)، مع أن ابراهيم هذا استعرض عضلاته في كتابه هذا في إهانة الشعراوي، والغزالي، والعودة، والأمة كلها، فماذا تقول فيمن يثني على أقذر العلمانيين ويشتم أفاضل المسلمين؟!



ويعلم عيسى وكل من قرأ دفاع العظم عن رشدي بكتابيه، الذين لم أقرأ في حياتي مثلهما في التهجم على الرسول والقرآن، وبصورة لم يسبق إليها، إنه العظم الذي قد زاد على أوساخ رشدي بأقذر منها، وذلك على امتداد أكثر من ألف صفحة من صفحات كتابيه الذين أثنى إبراهيم عيسى على أحدهما، وفيه من الشتم والهزء والتهكم والسخرية من النبي صلى الله عليه وسلم بل والدفاع عن شاتمه والمتهكم به الشيء الخطير، بدعوى العظم أن المنهجية الحديثة تتطلب إسقاط هيبة أي شخص خصوصًا الأنبياء، وبالذات النبي محمد صلى الله عليه وسلم، لأن الدين لا بد أن يهان حتى يزول!

لكن الجماهير لا تقرأ ولا تعرف أنها تجلس أمام أبالسة الشاشات والفضائيات الممولة بالمال الفاسد والعلماني في آن، يقومون بخلخلة معتقداتها وزعزعة الثقة في مسلماتها وعظمائها، ونبيها ودينها.

والحاصل بعد ما قلناه هو:

إن ثورتنا قائمة وماضية وثابتة ومزلزلة لعودة الحق للشعب كله، وعودة الوعي الحقيقي للأمة؛ فها هو تيار النهضة الإسلامية الهادر العظيم ومعه غالبية الشعب الشريف تقف في وجه الثورة المضادة بوجوهها المعلنة والمتسترة، حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا، وإن هذه الأمة لمنصورة إن شاء الله، مهما قدمت من شهداء وتحملت من آلام؛ فإن شهادتها لله تقتضي ذلك البذل والعطاء.

﴿ وَاللَّـهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: 21]



كيف كانت رابعة؟

جيلان ثروت

وجوهٌ بالصيام نضرة .. للقيامِ متطلعةٌ .. منتظرة .. بها صحبة الأيام كأعوام دائمة مستمرة .. عطرة ..
جثث محترقة .. حرقة مكلومة ويتيم وثكلى ..
أدمغة مشتتة مبعثرة .. وأمعاء .. خطى راقصة .. تعلو الدماء .. أشلاء ..
كيف تذكر "رابعة"؟

يقول علماء النفس إن الإنسان حينما يتعرض لصدمة عنيفة مزلزلة فإنه يتأثر على كافة الأصعدة؛ عصبيًّا ونفسيًّا وذهنيًّا؛ بحيث تتكرر لديه ذكريات عشوائية مكثفة عن ذلك الحدث الصادم، وتتبادر إلى ذهنه متسارعة مشوشة مفردات ثابتة في إشارة لما خلفته الصدمة من آثار قد اختزنها العقل الباطن، ربما حتى الممات، لفظات بعينها مثل: "تهديد" - "رصاص" - "قتل" - "موت" - "حرق". لذا نجد المُبتلَى يسعى لتجنب تذكر الحادث أو أي جزء منه؛ كوسيلة دفاعية للنفس ضد الصدمة، وحينها يبدأ بالتدريج فقدان الحس العاطفي، ويشوب التقدير العقلي لديه الكثير من المبالغة.

تحليلٌ عقلانيٌ متخصصٌ مُعتَبَر .. أراه وقد جانبه الصواب!

لست بصدد الحديث عن فضل الشهادة والشهداء في الإسلام، وهو الذكر الذي لا يثبط به قلمٌ ولا يكل قط؛ بل يسيل الحبر بخط حروفه وقد استحال عودًا وعبقًا، ولا أميل لمناقشة ما تعانيه بلادنا من أمر خطب؛ فقد تناول ذلك العديدون بالتحليل أفقيًّا ورأسيًّا، وأوسعوه شرحًا من كافة الزوايا والأبعاد وأطنبوا، حتى استُنفِذَت الكلمات و تبخَّرت؛ مفسحةً مجالًا أكبر لأفعالٍ مأمولة.

فقط لقطاتٌ بعينها استوقفتني، وجدتها فاقت في الرقة والثقة ودقة المشاعر والثبات على المبدأ ما امتلأت به الأساطير على مر الأزمنة، وضجت به أمهات كتب العشق والبطولة شرقًا وغربًا.

لقطةٌ أولى ..



نجد فيا الزوجين وقد تجالسا متسامرين .. يلاعبان رضيعهما .. مهذبٌ هو .. رقيقٌ بلحيته .. مليحٌ بابتسامةٍ ربانية مطمئنة .. ينافس بها "نجومًا" فانية صنعها بشر فاصطنعوها ..

ساحرةٌ هي بنقابها .. لافتة وقورة بسواد ثيابها .. حنون في لمسة يدها ..

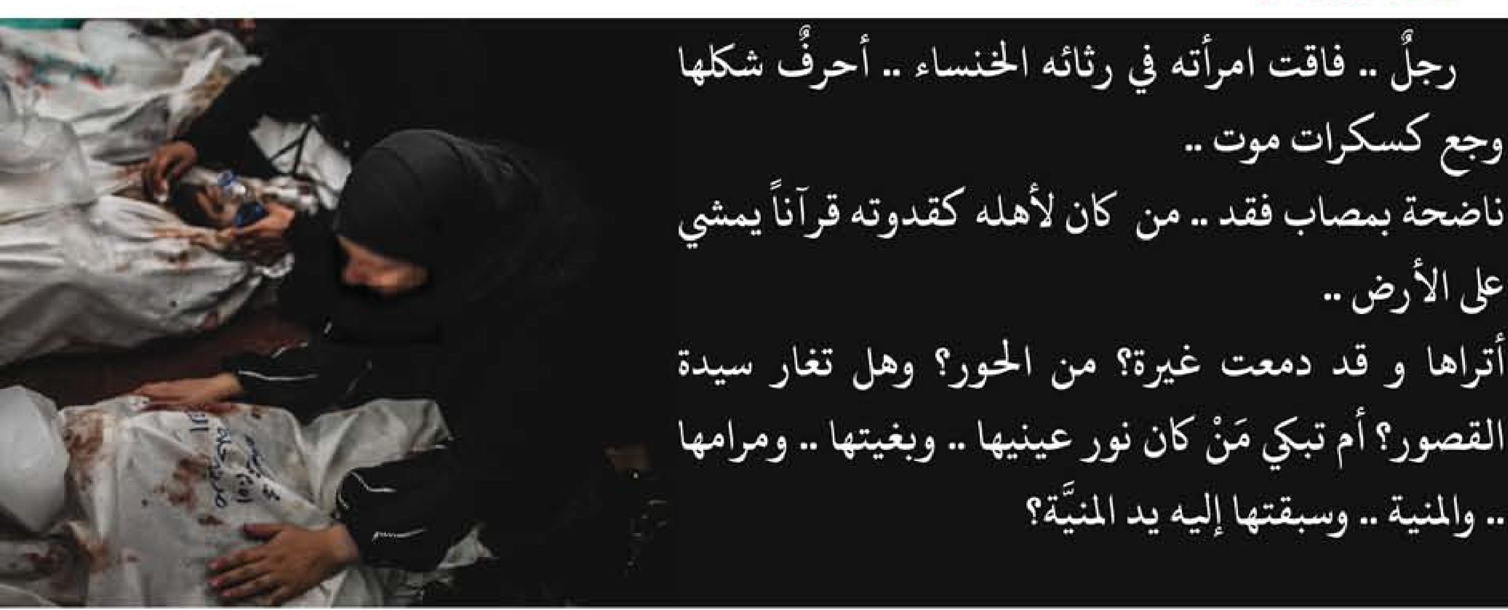
أين إذن ذاك الأثر الرث .. الخشن الفظ النهم للنموذج المسلم، الذي حيكت حوله القصص والروايات بخبث بائن وموجه ففسد وأفسد؟!

لقطةٌ ثانية ..

مشهد ما يحوي إلا آثار دمار .. نيرانٌ صهباء .. ثيابٌ عفراء .. أدخنة متصاعدة وكأنما تشكو الأرض إلى رب السماء .. وزوجة ترتقي ساكنة .. بين نحر زوجها وصدره؛ متبعةً في ذلك سنة مهجورة ..

كيف كان عيشهما معًا .. ليروق للناظر فراقهما .. فيبدو هكذا جميلًا! وهو القبيح؟

لقطة ثالثة ..



رجلٌ .. فاقت امرأته في رثائه الخنساء .. أحرفُ شكلها وجع كسكرات موت ..

ناضحة بمصاب فقد .. من كان لأهله كقدوته قرآناً يمشي على الأرض ..

أتراها و قد دمعت غيرة؟ من الحور؟ وهل تغار سيدة القصور؟ أم تبكي مَنْ كان نور عينيها .. وبغيتها .. ومرامها .. والمنية .. وسبقتها إليه يد المنيَّة؟

وتصف رابعة لقطةً رابعة ..

جميلة .. ملائكية ..
كضوء القمر يبسم ثغرها .. كالفضةِ تبرق عيناها
يقول شقيقها في موتها ما تقطّعت له نياط القلوب ..
ولست أدري .. أَيُحدِّث نفسه مهنئًا؟ أم مُعزيًا محتسبا؟

وخامسة .. وسادسة .. وعشرين ..

أسئلة بلاغية متعددة بلا غرض .. والإجابة واحدة ..
هو الإسلام .. حيث الحب الحق والبيت السوي، والعقل المستنير والفطرة القويمة والقلب السليم؛ حيث عيش الأثرياء وعشق الأوفياء وعبادة الأتقياء وارتقاء الشهداء ..
حيث رضا الإله ممتدًا دائمًا دائبًا، من باطن الرحم وحتى عنان الجنان ..

ارفع رأسَك .. أخي!



انفض يديك من الهم، والفظ من ذاكرتك مشهد الهدم! واذكر رابعة فقط بالدين .. باللحم والفخر والدم .. بجنةِ الله في الدنيا يفوقها فردوس الآخرة ..

انظر لحزنك متهكمًا .. واحمل سلاحك .. قرآنك .. حفاظًا .. وحفظًا ..
فتالله إن حبات الثرى التي عفرت جباهًا سُجدًا، و خضبها أبطال بدماء شُهَّدًا .. لا أجدها إلا تالية قول ربي:

"ولا تهنوا"!



هل يحرُم الخروج على الانقلابيين؟

حسام عبد العزيز

ابتلينا منذ شهرين بأناس لم ينفكوا يخذِّلون الرافضين للانقلاب عن التظاهر والاعتصام، وطفق هؤلاء يحدثوننا عن حرمة الخروج على الحاكم وإمامة المتغلب وغيرها من الفتاوي، التي تذكرنا بما ردده هؤلاء قبل ثورة الخامس والعشرين من يناير، والتي يتحدث هؤلاء الآن عن ضرورة الحفاظ على مكتسباتها، وهم الذين رأوها بالأمس فتنة مفاسدها تربو على مصالحها (مكتسباتها).

شبهة الإجماع على تحريم الخروج على أئمة الجور:

واليوم تعج صفحات المخذِّلين بعدد من الشبهات، أولها وأبرزها ادعاء الإجماع على حرمة الخروج على الحاكم ولو كان جائرًا، وهو تدليس لا ينبغي من محقق متأخر جمع بين الأدلة ورأى أن هذا الإجماع لم ينعقد أصلًا.

يقول الزمخشري في تفسير قول الله تعالى ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: 124] "وقالوا: في هذا دليل على أن الفاسق لا يصلح للإمامة، وكيف يصلح لها من لا يجوز حكمه وشهادته، ولا تجب طاعته ولا يقبل خبره، ولا يقدّم للصلاة. وكان أبو حنيفة رحمه الله يفتي سرًّا بوجوب نصرة زيد بن عليّ رضوان الله عليهما، وحمل المال إليه، والخروج معه على اللص المتغلب المتسمى بالإمام والخليفة، كالدوانيقى وأشباهه. وقالت له امرأة: أشرت على ابني بالخروج مع إبراهيم ومحمد ابني عبد الله بن الحسن حتى قتل. فقال: ليتني مكان ابنك. وكان يقول في المنصور وأشياعه: لو أرادوا بناء مسجد وأرادوني على عدّ آجره لما فعلت. وعن ابن عيينة: لا يكون الظالم إمامًا قط. وكيف يجوز نصب الظالم للإمامة، والإمام إنما هو لكف الظلمة. فإذا نصب من كان ظالمًا في نفسه فقد جاء المثل السائر: من استرعى الذئب ظلم". [تفسير الزمخشري، (1/187)]

وفي تفسير القرطبي يقول أبو عبد الله: استدل جماعة من العلماء بهذه الآية على أن الإمام يكون من أهل العدل والإحسان والفضل مع القوة على القيام بذلك، وهو الذي أمر النبي صلى الله عليه وسلم ألا ينازعوا الأمر أهله, على ما تقدم من القول فيه. فأما أهل الفسوق والجور والظلم فليسوا له بأهل، لقوله تعالى:﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، ولهذا خرج ابن الزبير والحسين بن علي رضي الله عنهم، وخرج خيار أهل العراق وعلماؤهم على الحجاج، وأخرج أهل المدينة بني أمية وقاموا عليهم، فكانت الحرة التي أوقعها بهم مسلم بن عقبة. [تفسير القرطبي (2/108-109)]

وها هو أبو محمد ابن حزم الظاهري على تعصبه لبني أمية يحتج على ابن مجاهد المقرئ بخروج الحسين بن عليّ -رضي الله عنهما- وخروج أصحابه على يزيد، وبخروج ابن الأشعث ومن معه من كبار التّابعين، وخيار المسلمين على الحجّاج بن يوسف. وحاصل كلام ابن حزم في كتابه (مراتب الإجماع) أن من ادعى الإجماع حول حرمة الخروج على الحاكم فقد كفر الحسين بن علي رضي الله عنه، وهذا مما لا يقول به عاقل، وأن القول بالإجماع على حرمة الخروج إفك عظيم؛ فمعلوم أن مخالف الإجماع كافر!. [مراتب الاجماع، ص178] وسيأتي ذكر كلام أبي محمد تفصيلًا.

شبهة أن رافضي الانقلاب خوارج:

وكما تقدم أن فريقًا من أهل العلم يفتي بقتال أئمة الجور، وأن الحاظرين لم يمنعوا قتالهم إلا خشية المفسدة وإراقة الدماء؛ فمن التدليس قياس التظاهر والهتاف والاعتصام السلمي على هذا القتال، فضلًا عن التدليس بادعاء الإجماع.



وقد دلس المَدَاخِلة وبعض مشايخ السلطان -كعلي جمعة- على الناس فقالوا إن رافضي الانقلاب خوارج يستحقون القتل، والحق الذي لا شبهة فيه أن الخارج على حاكمه ليس خارجيًّا بالضرورة، وإلا فكيف خرج أفاضل الصحابة على يزيد بن معاوية؟

يقول ابن حزم: "وقد عُلم أن أفاضل الصحابة وبقية السلف يوم الحـرَّة خرجوا على يزيد بن معاوية، وأن ابن الزبير ومن تابعه من خيار الناس خرجوا عليه، وأن الحسين بن علي ومن تابعه من خيار المسلمين خرجوا عليه أيضًا رضي الله عن الخارجين عليه ولعن قتلتهم، وأن الحسن البصري وأكابر التابعين خرجوا على الحجاج بسيوفهم. أترى هؤلاء كفروا؟ بل والله من كفرهم فهو أحق بالكفر منهم، ولعمري لو كان اختلافًا يخفى لعذرناه، ولكنه مشهور يعرفه أكثر من في الأسواق والمخدَّرات في خدورهن لاشتهاره، ولكن يحق على المرء أن يخطم كلامه ويزمـه إلا بعد تحقيق وميز، ويعلم أن الله تعالى بالمرصاد، وأن كلام المرء محسوب مكتوب مسؤول عنه يوم القيامة مُقلدًا أجر من اتبعه عليه أو وزره". [المصدر السابق]

وقال الشوكاني: "لا يَنْبَغِي لِمُسْلِمٍ أَنْ يَحُطَّ على من خَرَجَ من السَّلَفِ الصَّالِحِ من الْعِتْرَةِ وَغَيْرِهِمْ على أَئِمَّةِ الْجَوْرِ؛ فَإِنَّهُمْ فَعَلُوا ذلك بِاجْتِهَادٍ منهم، وَهُمْ أَتْقَى لِلَّهِ وَأَطْوَعُ لِسُنَّةِ رسول اللَّهِ من جَمَاعَةٍ مِمَّنْ جاء بَعْدَهُمْ من أَهْلِ الْعِلْمِ، وَلَقَدْ أَفْرَطَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ كَالْكَرَّامِيَّةِ وَمَنْ وَافَقَهُمْ في الْجُمُودِ على أَحَادِيثِ الْبَابِ، حتى حَكَمُوا بِأَنَّ الْحُسَيْنَ السِّبْطَ رضي الله عنه وَأَرْضَاهُ بَاغٍ على الْخِمِّيرِ السِّكِّيرِ الْهَاتِكِ لِحُرُمِ الشَّرِيعَةِ الْمُطَهَّرَةِ يَزِيدَ بن مُعَاوِيَةَ لَعَنَهُمْ اللَّهُ فَيَالَلَّهِ الْعَجَبُ من مَقَالاتٍ تَقْشَعِرُّ منها الْجُلُودُ، وَيَتَصَدَّعُ من سَمَاعِهَا كُلُّ جُلْمُودٍ". [نيل الأوطار (3/362)]

ويعرف النووي الخوارج بأنهم "صِنْفٌ مِنَ الْمُبْتَدِعَةِ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ مَنْ فَعَلَ كَبِيرَةً كَفَرَ وَخُلِّدَ فِي النَّارِ، وَيَطْعَنُونَ لِذَلِكَ فِي الْأَئِمَّةِ، وَلَا يَحْضُرُونَ مَعَهُمُ الْجُمُعَاتِ وَالْجَمَاعَاتِ". [روضة الطالبين (10/52)].

وعليه فإن القول بأن الخروج على كل خارج على الحاكم هو خارجي قول سقيم لا يقول به أحد، وهذا الوصف لا ينطبق على رافضي الانقلاب بل هو أقرب لقائد الانقلاب الذي أعلن أن خروجه على مرسي لرغبة الأخير في إقامة إمبراطورية إسلامية.

قال مالك: "إذا بايع الناس رجلًا بالإمارة، ثم قام آخر فدعا إلى بيعته فبايعه بعضهم أن المبايع الثاني يقتل إذا كان الإمام عدلًا، فإن كان مثل هؤلاء فلا بيعة له تلزم، إذا كانت بيعتهم على الخوف، والبيعة للثاني إن كان عدلًا، وإلا فلا بيعة له تلزم". [العقد المنظم بحاشية تبصرة الحكام (195/2-197]

وأقل القول في الانقلابيين إنهم من البغاة؛ يقول النّووي: "الباغي في اصطلاح العلماء هو: المخالف لإمام العدل، الخارج عن طاعته بامتناعه من أداء واجب عليه أو غيره". [روضة الطالبين (7/270)]
قال تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات:9]

يقول ابن حزم في المحلى: "فَإِنْ كَانَ جَائِزًا فَقَامَ عَلَيْهِ مِثْلُهُ أَوْ دُونَهُ: قُوتِلَ مَعَهُ الْقَائِمُ، لِأَنَّهُ مُنْكَرٌ زَائِدٌ ظَهَرَ، فَإِنْ قَامَ عَلَيْهِ أَعْدَلُ مِنْهُ وَجَبَ أَنْ يُقَاتَلَ مَعَ الْقَائِمِ؛ لِأَنَّهُ تَغْيِيرُ مُنْكَرٍ". [المحلى، (10/236)]

شبهة المظاهرات والاعتصامات لن تفيد بل تضر بالناس:

وكما تقدم أن فريقًا من أهل العلم يفتي بقتال أئمة الجور، وأن الحاظرين لم يمنعوا قتالهم إلا خشية المفسدة وإراقة الدماء، فمن التدليس قياس التظاهر والهتاف والاعتصام السلمي على هذا القتال فضلًا عن التدليس بادعاء الإجماع.

بل إن تغيير المنكر الذي يأتيه الحكام باليد لا يعد خروجًا على الحاكم في الحقيقة.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي: "وقد ذكرنا حديث ابن مسعود الذي فيه "يخلف من بعدهم خلوف؛ فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن"... الحديث، وهذا يدل على جهاد الأمراء باليد، وقد استنكر الإمام أحمد هذا الحديث في رواية أبي داود وقال: هو خلاف الأحاديث التي أمر رسول الله فيها بالصبر على جور الأئمة. وقد يجاب عن ذلك بأن التغيير باليد لا يستلزم القتال، وقد نص على ذلك أحمد أيضًا في رواية صالح فقال: التغيير باليد ليس بالسيف والسلاح فحينئذ جهاد الأمراء باليد أن يزيل بيده ما فعلوه من المنكرات؛ مثل أن يريق خمورهم أو يكسر آلات اللهو التي لهم أو نحو ذلك أو يبطل بيده ما أمروا به من الظلم إن كان له قدرة على ذلك، وكل ذلك جائز وليس هو من باب قتالهم ولا من الخروج عليهم". [جامع العلوم والحكم، (1/322)]

ومن شبهات المخذِّلين أن الفعاليات الراهنة مصيرها الفشل؛ لاختلال موازين القوى، والتي كانوا هم أحد السبب في اختلالها، بالخروج في صف مؤيدي الانقلاب والمشاركة في خارطة الانقلاب.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رجلٌ: يا رسولَ اللهِ! إنَّ لي جَارًا يُؤْذِينِي، فقال: "انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَتَاعَكَ إلى الطَّرِيقِ فانطلقَ". فَأَخْرَجَ مَتَاعَهُ، فَاجتمعَ الناسُ عليهِ، فَقَالوا: ما شأنُكَ؟ قال: لي جَارٌ يُؤْذِينِي، فذكرْتُ لِلنَّبِيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقال: "انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَتَاعَكَ إلى الطَّرِيقِ". فَجَعَلوا يقولونَ: اللَّهُمَّ العنهُ! اللَّهُمَّ اخْزِهِ! فَبلغَهُ فأتاهُ فقال: ارْجِعْ إلى منزلِكَ، فوَاللهِ لا أُؤْذِيكَ! [الأدب المفرد وصححه الألباني]

وفي الحديث أمر صريح للرجل بإخراج المتاع، ومعلوم أن إخراج المتاع في الطريق يضيق على الناس الطريق.
ومن الوسائل المستحدثة لإسقاط الظلمة بوسائل سلمية هو عصيانهم، وهذا إن كان مستحدثًا فله مستند من السنة، وقد جاء في الطبراني عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "يكون في آخر الزمان أمراء ظلمة، ووزراء فسقة، وقضاة خونة، وفقهاء كذبة، فمن أدرك منكم ذلك الزمان فلا يكونن لهم جابيًا ولا عريفًا ولا شرطيًّا". [حسنه الألباني]

وقد أثبتت وسائل الاحتجاج السلمي في عصرنا الحديث نجاحًا؛ فسقط عدد من الأنظمة الديكتاتورية في العالم؛ كما حدث في جورجيا، وصربيا، وأوكرانيا، فيما يُعرف بالثورات الملونة، وتمكنت وسائل العصيان المدني في الهند وغيرها من تحقيق أهدافها بشكل سلمي، وفي هذا رد كاف على من ادعى أن الثورات ما قامت إلا وأعقبها شر؛ فإن احتجوا ببعض التاريخ القديم حججناهم بشيء من التاريخ الحديث.

شبهة أن ابن عمر كان مع المتغلب:

ويطير المخذِّلون بقول ابن عمر: "لا أقاتل في الفتنة وأصلي وراء من غلب". وبقوله لابن الزبير بعد أن صلبه الحجاج: "أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا، أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا، أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا، أما والله إن كنت ما علمت صوّامًا قوّامًا وصولًا للرحم، أما والله لأُمّة أنت شرُّها لأمة خير".



وقد كان هذا في الأمر الأول قبل أن يتبين ابن عمر أن جيش ابن مروان كان الجيش الباغي؛ فلم يعرف ابن عمر من يبايع، وقد بايع أهل الحجاز والعراق ابن الزبير فيما بايع أهل الشام ومصر ابن مروان.

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن حبان السلمي قَالَ: سَأَلت ابْن عمر عَن قَوْله ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ وَذَلِكَ حِين دخل الْحجَّاج الْحرم؛ فَقَالَ لي: "عرفت الباغية من المبغي عَلَيْهَا؛ فوالذي نَفسِي بِيَدِهِ لَو عرفت المبغية مَا سبقتني أَنْت وَلَا غَيْرك إِلَى نصرها، أَفَرَأَيْت إِن كَانَت كلتاهما باغيتين". [الدرر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي. الحجرات - الآية التاسعة]

ومما يدل على أن الاعتزال يكون عند التباس الأمر فلا يُعلم المصيب من المخطئ أن ابْنُ عُمَرَ قال: "كَفَفْتُ يَدِي، فَلَمْ أَندَمْ، وَالمُقَاتِلُ عَلَى الحَقِّ أَفْضَلُ". [طبقات ابن سعد (4/ 164)]

ويقول ابن حزم: "وَقد روينَا عَن ابْن عمر أنه قَالَ: لَا أَدْرِي من هِيَ الفئة الباغية، وَلَو علمنَا مَا سبقتني أَنْت وَلَا غَيْرك إِلَى قتالها". [الفصل في الملل والنحل 4/132]

وقد ثبت أن ابن عمر ندم عند موته على عدم قتاله الحجاج بن يوسف؛ فعن سعيد بن جبير، قال: لما احتضر ابن عمر، قال: ما آسى على شيء من الدنيا إلا على ثلاث: ظمأ الهواجر، ومكابدة الليل، وأني لم أقاتل الفئة الباغية التي نزلت بنا". يعني الحجاج. [طبقات ابن سعد (4 / 185)]

وعجبت ممن ينقلون هذا الكلام، فإذا ما سلمنا بصحة قولهم بحرمة الخروج على الانقلابيين كما كان ابن عمر مع المتغلب؛ فهل رأينا من شيخهم إنكارًا كإنكار ابن عمر على الحجاج بعدما ارتكبه الانقلابيون من مجازر وانتهاك حرمة المساجد؟ بل ما وجدنا منه سوى القول السقيم بأن ابعدوا المظاهرات عن المساجد ولن يعتدي عليها أحد!

صور من إنكار ابن عمر على الحجاج (من سير أعلام النبلاء للذهبي):

عن نافع قال : أصابت ابن عمر عارضة محمل بين أصبعيه عند الجمرة، فمرض فدخل عليه الحجاج، فلما رآه ابن عمر غمض عينيه، فكلمه الحجاج فلم يكلمه فغضب، وقال: إن هذا يقول إني على الضرب الأول.

وقدم ابن عمر حاجًّا فدخل عليه الحجاج، وقد أصابه زج رمح. فقال: من أصابك؟ قال: أصابني من أمرتموه بحمل السلاح في مكان لا يحل فيه حمله.

وكأني بشيخ المخذِّلين يلوم ابن الزبير على أنه تسبب في تعريض الحرم لحجارة المنجنيق، وكأنه يقول له: ابتعد بالسياسة عن المسجد الحرام! دون أن يلوم القاتل؛ فتأملوا الفرق بين علماء الحق وعلماء السلاطين.

وقام ابن عمر إلى الحجاج وهو يخطب، فقال: يا عدو الله! استحل حرم الله، وخرب بيت الله. فقال: يا شيخًا قد خرف. فلما صدر الناس أمر الحجاج بعض مسودته، فأخذ حربة مسمومة، وضرب بها رجل ابن عمر فمرض ومات منها. ودخل عليه الحجاج عائدًا، فسلم فلم يرد عليه، وكلمه فلم يجبه.

وعن ابن سيرين أن الحجاج خطب فقال: إن ابن الزبير بدل كلام الله. فعلم ابن عمر فقال: كذب، لم يكن ابن الزبير يستطيع أن يبدل كلام الله ولا أنت، قال: إنك شيخ قد خرفت الغد. قال: أما إنك لو عدت، عدت.

وكأني بابن عمر رضي الله عنه يوبخ شيخهم ويقول له: قال قائد الانقلاب في حياتك إنه خلع مرسي لأن الأخير كان يريد إقامة إمبراطورية إسلامية ولم تزجره. رجل يعلن رفضه لحكم الإسلام وتسميه متدينًا ويصلي الصلوات الخمس وتضلل الناس. أما كان يسعك أن تقول كلمة حق في وجهه يسمعها الناس؟ أما كان يسعك أن تنكر بدلًا من الثناء؟! وكيف سكتَّ عن تصريحات وزير الخارجية نبيل فهمي بأن مرسي أراد إقامة نظام إسلامي فلجأنا إلى الجيش؟!

ماذا تنقمون من حزب النور؟



ويقول أتباع حزب النور: إذا كان الأمر خلافيًّا، بل إن جمهور العلماء على حرمة الخروج على المسلم الفاسق فماذا تنقمون منا؟

وقد سبق بيان بعض من رد هذا التدليس ببيان ما فعله ابن عمر من جرأة في الحق، مقابل سكوت شيخهم عن منكر سفك الدماء، وإلقاء اللائمة على الضحية.

وأعظم من هذا أن القول بحرمة الخروج ينطبق من باب أولى على الانقلابيين الذين خرجوا على الرئيس محمد مرسي؛ فلم يكن منهم إنكارٌ على ما يرونه إثمًا؛ بل باركوه ووصفوه بصفات المديح؛ كثورة التصحيح وتصحيح المسار، بل ولم يسموه انقلابًا؛ فكذبوا وقالوا الجيش لم ينقلب على نتيجة الصندوق، وهو كذب صريح لا يتطرق إلى فجاجته الشك. ومعلوم أن الإنكار يكون باليد أولًا، ولما كان مذهبهم هو حرمة الخروج على المتغلب فأين الإنكار باللسان والقلب بعدم المشاركة في خارطة الانقلاب على الأقل؟

وهؤلاء لم يروها فتنة واجبة الاعتزال كي يُعذروا؛ بل شاركوا فيها وسموها ثورة تصحيح وتصحيح مسار. وقد وقف ابن مخيون بجوار المتحدث باسم الانقلاب وهو يشكر حزب النور على دوره في ثورة 30 يونيو المجيدة، دون أن يعترض أو ينبس ببنت شفة، رغم تأكيده المستمر على أن الحزب لم يشارك في الانقلاب ولم يرض بخلع مرسي!

بيد أن الخطأ الأكبر كان حديث كبيرهم في تسجيل مسرب شهير حول تدين قائد الانقلاب وأدائه الصلوات الخمس، وأن السفاح لا يرضى بالدماء. ولا يقول عاقل بالثناء على رجل خلع حاكمه بالقوة وحبسه وقتل أنصاره.

يقول ابن حجر الهيتمي: "وَقد سمى النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم فئته الْمُسلمين، وساواهم بفئة الْحسن فِي وصف الْإِسْلَام؛ فَدلَّ على بَقَاء حُرْمَة الْإِسْلَام لِلْفَرِيقَيْنِ، وَأَنَّهُمْ لم يخرجُوا بِتِلْكَ الحروب عَن الْإِسْلَام، وَأَنَّهُمْ فِيهِ على حد سَوَاء؛ فَلَا فسق وَلَا نقص يلْحق أحدهمَا، لما قَرَّرْنَاهُ من أَن كلًّا مِنْهُمَا متأول تَأْوِيلًا غير قَطْعِيّ الْبطلَان، وَفِئَة مُعَاوِيَة وَإِن كَانَت هِيَ الباغية لكنه بغي لَا فسق بِهِ؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا صدر عَن تَأْوِيل يعْذر بِهِ أَصْحَابه. وَتَأمل أَنه صلى الله عَلَيْهِ وَسلم أخبر مُعَاوِيَة بِأَنَّهُ يملك وَأمره بِالْإِحْسَانِ تجِد فِي الحَدِيث إِشَارَة إِلَى صِحَة خِلَافَته وَأَنَّهَا حق بعد تَمامهَا لَهُ بنزول الْحسن لَهُ عَنْهَا، فَإِن أمره بِالْإِحْسَانِ الْمُتَرَتب على الْملك يدل على حقية ملكه وخلافته، وَصِحَّة تصرفه ونفوذ أَفعاله من حَيْثُ صِحَة الْخلَافَة لَهُ من حَيْثُ التغلب؛ لِأَن المتغلب فَاسق معاقب لَا يسْتَحق أَن يبشر وَلَا يُؤمر بِالْإِحْسَانِ فِيمَا تغلب عَلَيْهِ؛ بل إِنَّمَا يسْتَحق الزّجر والمقت والإعلام بقبيح أَفعاله وَفَسَاد أَحْوَاله. [الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة، (2/627)]

فأين الزجر والمقت والإعلام بقبيح أفعال الانقلابيين؟!

وإنك لتعجب أن المطالبين بحقن الدماء هددوا بثورة جديدة إبان عهد مرسي لمجرد توقيف شيخهم لدقائق أو ساعات في مطار؟ فأين هم من الصبر على مرسي؟! وأين حقن الدماء؟ وإن قالوا كنا سنقوم بثورة سلمية قلنا وهذا ما فعلناه!

وعلى ما ترى من مجازر تستوجب الإنكار الشديد، تفرغت هذه الطائفة في التنقيب والتفتيش في مساوئ الرئيس مرسي، ولو أنهم بذلوا هذا الجهد في الإنكار على القاتل لكان خيرًا لهم.

ماذا تنقمون من الانقلابيين؟

قد تقدم بيان بعض البشاعات التي ارتكبها قائد الانقلاب، ولا مانع من الإعادة على وجه التبيين والتأريخ:

- اغتصب الحكم من الرئيس الشرعي الذي اختاره الشعب واختطفه؛ فهو معتد باغ.

- أوقع آلاف القتلى والمصابين في مجازر الحرس الجمهوري والمنصة ورابعة والنهضة ورمسيس، وعدد من المحافظات.

- أُحرقت العشرات من جثث قتلى رابعة والنهضة -تقبلهم الله في الشهداء- بعد الانتهاء من فض الاعتصام، كما أحرق البعض أحياء أثناء الفض الوحشي.

- حاصر رجاله بيوت الله، واعتدوا على حرمتها، وأحرقوا مسجد رابعة، رغم نجاحهم في فض الاعتصام.

- أعلن أنه ما خلع مرسي إلا لأنه كان يريد إقامة إمبراطورية إسلامية، وكذا قال وزير خارجيته.

- اعتقل المئات من بينهم النساء، وهو تصرف خسيس لا يجرؤ عليه كفار قريش.

- أحرق عشرات من معتقلي سجن أبي زعبل وهم أحياء في سيارة الترحيل، وأدانت النيابة الداخلية بشكل رسمي.

- أطلق يد البلطجية في الشوارع يستهدفون كل ذي سمت إسلامي ولو لم يكن رافضًا للانقلاب؛ كما حدث مع بعض الأعضاء بحزب النور؛ الذين اعتقل أيضًا عدد من أفراده لسمتهم كما شكا ابن مخيون لرويترز.

- نسق مع اليهود لقتل مسلمين في سيناء، وهذا ثابت بكذب متحدث الجيش الذي ادعى سماع أصوات انفجارات ثم خرج -بعد حديث وسائل الإعلام عن التنسيق المصري الإسرائيلي- ليقول إن الجيش المصري هو الذي قصف المكان!

وكثير ممن منعوا الخروج على أئمة الجور إنما قالوا ذلك حقنًا للدماء وحفظًا لوحدة البلاد من الأعداء؛ فماذا لو عاش هؤلاء ورأوا حاكمًا متغلبًا قاتلًا، ابتدأ حكمه بسفك الدماء والتعاون مع اليهود على قتل المسلمين، ولم ير غضاضة في أن يعزو سبب خلعه للرئيس إلى رغبة الأخير في إقامة إمبراطورية إسلامية!

وحقن الدماء إن كان مصلحة عظيمة فهو ليس المصلحة الوحيدة؛ فقد أفتى ابن عمر عثمان بن عفان بألا يتنحى فَتكون سنة، رغم ما في الأصرار على البقاء من احتمال سفك دم عثمان وأسرته وبعض الصحابة المدافعين عنه.

روى ابن سعد بإسناده إلى عبد الله بن عمر قال: قال لي عثمان وهو محصور في الدار: ما ترى فيما أشار به عليّ المغيرة بن الأخنس؟ قال قلت: ما أشار به عليك؟ قال: إن هؤلاء القوم يريدون خلعي فإن خلعت تركوني وإن لم أخلع قتلوني. قال: قلت: أرأيت إن خلعت تترك مخلدًا في الدنيا؟ قال: لا. قال: فهل يملكون الجنة والنار؟ قال: لا. قال: فقلت: أرأيت إن لم تخلع هل يزيدون على قتلك؟ قال: لا. قلت: فلا أرى أن تسن هذه السنة في الإسلام، كلما سخط قوم على أميرهم خلعوه، لا تخلع قميصًا قَمَّصَكَهُ الله. [الطبقات، (3/ 66)]

هل كل هؤلاء خوارج؟

وقد نقلت لكم شيئًا من فقه القائلين بالخروج على أئمة الجوار؛ لأبين خطأ ادعاء انعقاد الإجماع على حرمة الخروج، والقول بأن رافضي الانقلاب خوارج؛ فهل من سيأتي ذكرهم خوارج؟!

روى ابن جرير الطبري في تاريخه من حديث موسى بن عقبة المؤرخ عن عمر رضي الله عنه قوله: "فلن يعجز الناس أن يولوا رجلًا منهم؛ فإن استقام اتبعوه وإن جنف قتلوه". فقال طلحة: "وما عليك لو قلت إن تعوج عزلوه". فقال: "لا، القتل أنكل لمن بعده". [تاريخ الطبري (2/572)]

وروى مسلم في صحيحه أَنَّهُ لَمَّا كان بين عبد اللهِ بن عَمْرٍو وَبَيْنَ عَنْبَسَةَ بن أبي سُفْيَانَ ما كان، تَيَسَّرُوا لِلْقِتَالِ (وذلك أن عنبسة بن أبي سفيان -أمير الطائف لأخيه معاوية- أراد أن يأخذ قطعة من أرض عبد الله بن عمرو بن العاص يقال لها (الوهط)؛ فجمع عبد الله ولده وعبيده واستل سيفه) فَرَكِبَ خَالِدُ بن الْعَاصِ إلى عبد اللهِ بن عَمْرٍو فَوَعَظَهُ خَالِدٌ، فقال عبد اللهِ بن عَمْرٍو: "أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قال: "من قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ"؟.

وقال العلامة أبو بكر الجصّاص من الحنفية: "وكان مذهبه (أي: أبو حنيفة) مشهورًا في قتال الظلمة وأئمة الجور؛ ولذلك قال الأوزاعي: احتملنا أبا حنيفة على كل شيء حتى جاءنا بالسيف -يعني قتال الظلمة- فلم نحتمله.



وكان من قوله: وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض بالقول، فإن لم يؤتمر له فبالسيف على ما روي عن النبي.

وسأله إبراهيم الصائغ -وكان من فقهاء أهل خراسان ورواة الأخبار ونساكهم- عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقال: هو فرض. وحدَّثه بحديث عن عكرمة عن ابن عباس أن النبي قال: "أفضل الشهداء حمزة بن عبدالمطلب ورجل قام إلى إمام جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتل".

فرجع إبراهيم إلى (مرو) وقام إلى أبي مسلم صاحب الدولة فأمره ونهاه وأنكر عليه ظلمه وسفكه الدماء بغير حق فاحتمله مرارًا ثم قتله، وقضيته في أمر زيد بن علي مشهورة، وفي حمله المال إليه وفتياه الناس سرًّا في وجوب نصرته والقتال معه، وكذلك أمره مع محمد وإبراهيم ابني عبدالله بن حسن.

وقال لأبي إسحق الفزاري حين قال له: لم أشرت على أخي بالخروج مع إبراهيم حتى قتل؟ قال: مخرج أخيك أحب إلي من مخرجك. وكان أبو إسحق قد خرج إلى البصرة، وهذا إنما أنكره عليه أغمار أصحاب الحديث الذين بهم فُقِد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى تغلَّب الظالمون على أمور الإسلام؛ فمن كان هذا مذهبه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كيف يرى إمامة الفاسق؟". [أحكام القرآن، (1/86-87)]



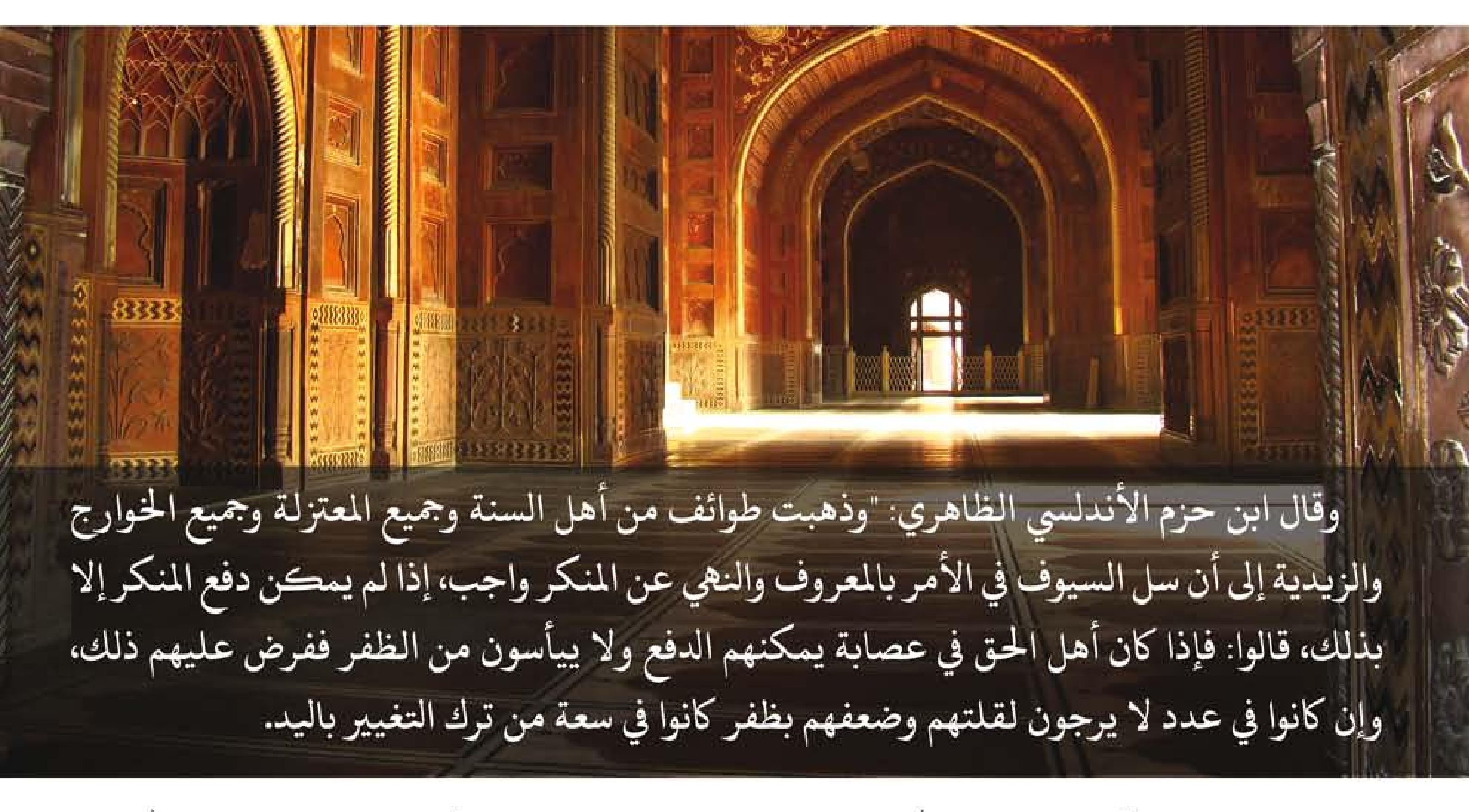
وقال ابن عبد البر الأندلسي المالكي: "قوله: "ألَّا ننازع الأمر أهله"، قال قائلون: أهله أهل العدل، فهؤلاء لا ينازعون لأنهم أهله، أما أهل الجور والظلم فليسوا بأهل له، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ﴾، ذهب إلى هذا طائفة من السلف الصالح، وتبعهم خلف من الفضلاء والعلماء من أهل المدينة والعراق، وبهذا خرج ابن الزبير والحسين بن علي على يزيد، وخرج خيار أهل العراق وعلماؤهم على الحجاج، وخرج أهل المدينة على بني أمية في الحرَّة...". [الاستذكار (5/16)، والتمهيد (23/278)]

وقال ابن العربي الأندلسي المالكي: "المسألة التاسعة: قال علماؤنا في رواية سحنون: إنما يقاتل مع الإمام العدل سواء كان الأول أو الخارج عليه؛ فإن لم يكونا عدلين فأمسك عنهما إلا أن تراد بنفسك أو مالك أو ظلم المسلمين فادفع ذلك.

المسألة العاشرة: لا نقاتل إلا مع إمام عادل يقدمه أهل الحق لأنفسهم، ولا يكون إلا قرشيًّا، وغيره لا حكم له إلا أن يدعو إلى الإمام القرشي. قاله مالك؛ لأن الإمامة لا تكون إلا لقرشي، وقد روى ابن القاسم عن مالك: إذا خرج على الإمام العدل خارجٌ وجب الدفع عنه، مثل عمر بن عبد العزيز، فأما غيره فدعه ينتقم الله من ظالم بمثله ثم ينتقم من كليهما". [أحكام القرآن لابن العربي (4/153-154)]

وقال الزبيدي الشافعي: "وأما الفسق فقد اختلف فيه على قولين: فالذي عليه الجمهور أنه لا يعزل به؛ لأن ذلك قد تنشأ عنه فتنة هي أعظم من فسقه، وذهب الشافعي في القديم إلى أنه ينعزل، وعليه اقتصر الماوردي في الأحكام السلطانية، وقال إمام الحرمين: إذا جار في وقت وظهر ظلمه وغشه ولم ينزجر عن سوء صنعه بالقول فلأهل الحل والعقد التواطؤ على رفعه وعزله، ولو شهر السلاح ونصب الحروب". [إتحاف السادة المتقين (2/233)]

وقال المرداوي الحنبلي: "وَجَوَّزَ ابن عَقِيلٍ وابن الْجَوْزِيِّ الْخُرُوجَ على إمَامٍ غَيْرِ عَادِلٍ، وَذَكَرَا خُرُوجَ الْحُسَيْنِ على يَزِيدَ لِإِقَامَةِ الْحَقِّ، وهو ظَاهِرُ كَلَامِ ابن رَزِينٍ على ما تَقَدَّمَ". [الإنصاف في مسائل الخلاف 311-10/310]



وقال ابن حزم الأندلسي الظاهري: "وذهبت طوائف من أهل السنة وجميع المعتزلة وجميع الخوارج والزيدية إلى أن سل السيوف في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب، إذا لم يمكن دفع المنكر إلا بذلك، قالوا: فإذا كان أهل الحق في عصابة يمكنهم الدفع ولا ييأسون من الظفر ففرض عليهم ذلك، وإن كانوا في عدد لا يرجون لقلتهم وضعفهم بظفر كانوا في سعة من ترك التغيير باليد.

وهذا قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكل من معه من الصحابة، وقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وطلحة والزبير وكل من كان معهم من الصحابة، وقول معاوية وعمرو والنعمان بن بشير وغيرهم ممن معهم من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، وهو قول عبد الله بن الزبير ومحمد والحسن بن علي وبقية الصحابة من المهاجرين والأنصار والقائمين يوم الحرة رضي الله عنهم أجمعين، وقول كل من أقام على الفاسق الحجاج ومن والاه من الصحابة رضي الله عنهم جميعهم؛ كأنس بن مالك، وكل من كان ممن ذكرنا من أفاضل التابعين؛ كعبد الرحمن ابن أبي ليلى، وسعيد بن جبير، وابن البحتري الطائي، وعطاء السلمي الأزدي، والحسن البصري، ومالك بن دينار، ومسلم بن بشار، وأبي الحوراء، والشعبي، وعبد الله بن غالب، وعقبة بن عبد الغافر، وعقبة بن صهبان، وماهان، والمطرف بن المغيرة ابن شعبة، وأبي المعد، وحنظلة بن عبد الله، وأبي سح الهنائي، وطلق بن حبيب، والمطرف بن عبد الله ابن الشخير، والنصر بن أنس، وعطاء بن السائب، وإبراهيم بن يزيد التيمي، وأبي الحوساء، وجبلة بن زحر، وغيرهم.

ثم من بعد هؤلاء من تابعي التابعين ومن بعدهم؛ كعبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر، ومحمد بن عجلان، ومن خرج مع محمد بن عبد الله بن الحسن، وهاشم بن بشر ومطر، ومن خرج مع إبراهيم بن عبد الله. وهو الذي تدل عليه أقوال الفقهاء؛ كأبي حنيفة، والحسن بن حي، وشريك، ومالك، والشافعي، وداود، وأصحابهم؛ فإن كل من ذكرنا من قديم وحديث إما ناطق بذلك في فتواه، وإما فاعل لذلك بسل سيفه في إنكار ما رآه منكرًا".

ثم قال: "والواجب إن وقع شيء من الجور وإن قل أن يكلم الإمام في ذلك، ويمنع منه، فإن امتنع وراجع الحق وأذعن للقود من البشرة أو من الأعضاء ولإقامة حد الزنا والقذف والخمر عليه =فلا سبيل إلى خلعه وهو إمام... فإن امتنع من إنفاذ شيء من هذه الواجبات عليه ولم يراجع =وجب خلعه وإقامة غيره ممن يقوم بالحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: 2] ولا يجوز تضييع شيء من واجبات الشرائع وبالله تعالى التوفيق". [الفِصَل في الملل والنحل (4/132-135)].

مــن الإمام؟!

محمد علي يوسف

إن في النفس البشرية ميلًا دائمًا للثناء، وحبًّا خفيًّا للمناقب وشرف الألقاب، وفي الحديث الصحيح: "ما ذئبانِ ضاريانِ في حظيرةٍ يأكلان ويُفسِدان، بأضرَّ فيها من حُبِّ الشَّرفِ، وحبِّ المالِ، في دِينِ المرءِ المسلمِ".

لذلك تسعى بعض النفوس سعيًا حثيثًا لإثبات وجود تلك المناقب والمحامد المثاني، حتى لو بأحساب ومناصب وموروثات، بينما الأصل المنطقي أن ليس الفتى من قال هذا أبي ولكن الفتى من قال ها أنا ذا، ويوافقه الأصل الشرعي كما في الحديث: "أربعٌ في أمَّتي من أمرِ الجاهليةِ لا يتركوهنَّ...". منها: "الفخرُ في الأحسابِ".

والأصل أن المبالغة في التزكية والتوسع في التفاخر والتباهي بالألقاب والمناصب =مذمومة شرعًا؛ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان: 18] وكما في قوله صلى الله عليه وسلم: "وأما الخيلاء التي يُبْغِضُ اللهُ تعالى: فاختياله في الفخر".

لكن حتى لو افترضنا وجود مناقب للمرء يتحدث بها غيره ويثني بها عليه؛ فإن تلك ليست مسألة موروثة أو مهداة، والمنطق يقول إنها مكتسبة بجهد الإنسان ومواقفه ونتاجه وثمراته التي وفقه الله إليها، وليست بمجاملة أو منصب أو كرسي؛ بل الأصل أن المرء هو من يضفي على كرسيه الوجاهة والشرف، وذلك إن أخذه بحقه واستعمله فيما يرضي الله جل وعلا، وبذلك يكون المنصب حجة له لا عليه.

والمعلوم والمتيقن أيضًا أنه ليس في الإسلام كهنوت ولا قداسة لشخص أو لمؤسسة بعينها، وترسيخ نفي ذلك واجب شرعي، وبيان أنه ليس هناك عهد أو كتاب ينزل من السماء ليعين إنسانًا بأنه الأعظم أو الأكبر أو الأشرف هو أصل من أصول الشرع الحنيف.

ربما كان ذلك التنزيه وتلك القداسة مفهومًا بين أتباع المذاهب والأديان الكهنوتية، التي يظن معتنقوها أن كبيرهم أتى باختيار سماوي بقرعة مقدسة، أو عهد إلهي موروث، أو تكليف من إمام غائب في سردابه.

أما المسلمون من أهل السنة فلا يعرفون ذلك؛ فالأئمة عندهم باستحقاقهم وتقديمهم إنما يكون بكسبهم وبنتاجهم وبتلاميذهم وبثمرتهم وبتزكية العلماء الثقات لعلمهم ولإمامتهم، وذلك كله بتوفيق من الله لهم، استحقوه بصبرهم ويقينهم وعبادتهم ودعائهم.

وكما ورد عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين، ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: 24]

وهم عباد الرحمن الذين تخلقوا بصفاتهم ودعوا ربهم، ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان: 74]

وهم مع ذلك يُحسَبون كذلك ولا يُزكى على الله أحدٌ، وذلك معنى بدهي ومنطقي ومعتقد إسلامي هام يظهر في العديد من الآيات والأحاديث الصحيحة؛ لعل أوضحها وأحكمها قوله تعالى: ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴾ [النجم: 32]

إنها مُسَلَّمة شرعية تقضي بأن الله وحده يعلم مصير الإنسان، ومآله وحقيقة تقواه ودينه: ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحجرات: 16] ولقد لخص النبي صلى الله عليه و سلم ذلك المعنى في جملة قالها يوم موت صاحبه عثمان بن مظعون رضي الله عنه، حين جاء البعض يزكونه، ويجزمون له بالجنة، فقال: "واللهِ ما أدري -وأنا رسولُ الله- ما يُفعَلُ بي ولا بِكم".



ورغم ما له صلى الله عليه وسلم من المبشرات والمنزلة عند ربه، إلا أنه على ما يبدو أراد إطلاق القاعدة وتعميمها على نفسه؛ لترسيخ وبيان ترك الأمر كله لله وإثبات تمام الافتقار والتسليم المطلق في أمر المصير إليه حتى مصيره هو نفسه.

ولما جاء الصحابة يزكون رجلًا مات أثناء الجهاد، إذا بالنبي صلى الله عليه و سلم يفاجئهم بأن الأمر ليس كما يتصورون، وأن الرجل إنما اتكأ على سيفه وقتل نفسه.

وغير ذلك من الآيات والأحاديث التي يمكننا من خلالها تبين تلك الحقيقة، التي من المفترض كما قلت وكما بدا من المثل أنها بديهية ومنطقية.

العجيب أن الصحابة أنفسهم كانوا يخشون على أنفسهم النفاق، ولا يأمن أحدهم على نفسه لهذه الدرجة!
بل وحتى الأنبياء عليهم السلام كانوا يحرصون على دعاء ربهم بالثبات واجتناب عبادة الأصنام، وما دعاء إبراهيم ويوسف عليهما السلام بالشيء الذي يغيب عن الأذهان، لقد دعا الأول ربه أن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام، بينما طلب الثاني الوفاة على الإسلام واللحاق بالصالحين، كما تضرع نبينا صلى الله عليه و سلم لمقلب القلوب كي يثبته على دينه.

فمن أين يأتي البعض بكل هذه التزكيات و التنزيهات والتقديسات لأحياء لا تؤمن عليهم الفتنة أو الزيغ؟
للأسف الشديد بعض المصريين قد نسوا أو تناسوا تلك الحقيقة الشرعية والمنطقية، وظهر نسيانهم هذا من خلال لسان حالهم ومقالهم الذي ينم أنه قد تسربت إلى أولئك دون أن يشعروا خصلة من خصال قوم قالوا يومًا: ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ [المائدة: 18]

صحيح أنهم لم يقولوها بتلك الفجاجة والاستعلاء، لكنهم أكدوا معناها من خلال إصرار بعضهم على إنزال جنسهم أو أشخاص وطوائف عندهم فوق منازلهم، وإضفاء هالة من التقديس والتنزيه على مناصب ومؤسسات بعينها، وكأنما اتخذوا عند الله عهدًا، فيه ذلكم الجزم المزعوم، أنهم بمنأى عن الفتن وبمعزل عن الزلل والنقد والرفض لشيء من خياراتهم ومواقفهم إلى يوم الدين!

من أوضح الأمثلة على ما أقول هي تلك الهالة من القداسة والتنزيه، التي يصر البعض على إضفائها على المؤسسة الأزهرية، جنبًا إلى جنب مع ذلك الإصرار على وصف من يُعين في وظيفة أو منصب شيخ الأزهر بالإمام الأكبر أو الأعظم أو إمام المسلمين، وتحصين تلك الألقاب والمناصب بحصون تكاد تكون كهنوتية، لدرجة تجعل حاملها فوق النقد أو الاختلاف أو رفض المواقف والخيارات.

لا أريد أن أنفق سطور مقالي هذا على تحليل لحالة بعينها أو شخص محدد شغل أو يشغل أو سيشغل هذه الوظيفة أو يُعين في ذلك المنصب؛ لكن ما أريد أن أناقشه هنا هو المبدأ نفسه بشيء من التحرر والتجرد والإطلاق:
هل مجرد الانتساب لمؤسسة أو التعيين في منصب ما فيها سبب كافٍ لإضفاء تلك الهالة والرفع لتلك المنزلة؟!
لكي نستطيع الوصول لإجابة متجردة على هذا السؤال لا بد لنا من تساؤلات تمهيدية.

لابد أن نعلم أولًا ما هو الأزهر؟ ومن هو شيخه؟ وكيف يصل إلى تلك المكانة وذلك الكرسي؟!

الأزهر هو الجامع المعروف، والمؤسسة الدينية العلمية الإسلامية العالمية الأشهر في العالم، والجامعة التعليمية المعروفة، والمنارة العلمية المحترمة، التي أخرجت أجيالًا من العلماء والدعاة جابوا الدنيا دعوةً وإصلاحًا وتنويرًا.

لا يسع منصفًا يقرأ تاريخ تلك المؤسسة بعد عودتها لأحضان أهل السنة والجماعة بسقوط الدولة الرافضية الفاطمية في منتصف القرن الهجري السادس أن ينكر ذلك التاريخ المشرف، وتلك العلامات العلمية البارزة في تاريخ الأمة الإسلامية، ودعوة الحق الربانية التي سطعت من منابر هذا الكيان العلمي المحترم.
لكنه كمكان للمدارسة ومؤسسة للدعوة ونشر العلم ليس له في ذاته فضل ثابت أو تزكية إلهية خاصة.
نعم قد تنطبق عليه مطلقات الشرع الحنيف؛ من تزكية للعلم النافع وثناء على حملته ومبلغيه ونحسب أنه كذلك.

لكن هل هناك مكانة خاصة في نصوص الشرع لهذا الجامع تحديدًا، أو تلك الجامعة بعينها؟
الجواب: لا.
المسألة إذًا تزكية مطلقة لمنارات العلم، وأماكن طلبه، التي تضع الملائكة أجنحتها لسالك سبيلها، وطالب رحيقها.

أكرر: هي تزكية مطلقة وليست خاصة، وقيمة ذلك كما استفتحت في مبدأ الاستحقاق نفسه، وكيف أنه مكتسب وليس شرفيًّا موروثًا، خاصة لو نظرنا لتاريخ تلك المؤسسة تحديدًا، وكيف أنها كانت حين أسست محلًّا لنشر التشيع؛ حيث أنشئت في عهد الدولة الفاطمية الشيعية لهذا الغرض؛ فهل ينطبق عليها حينذاك ما ينطبق على مستحقي تلك النصوص المطلقة المزكية للعلم النافع وأهله؟!

أعتقد أنني لست بحاجة للإجابة فهي واضحة معلومة لكل متجرد لم ترهبه الألقاب، ولم تخفه (التابوهات) ذات القداسة الوهمية.

وما ينطبق على الأزهر من تزكيات مطلقة لأماكن وسبل العلم وحامليه ينطبق على جامع وجامعة الزيتونة بتونس، وعلى الجامعة الإسلامية بالحجاز، وعلى كل مؤسسة بشرية حادثة عنيت بنشر العلم النافع وتبليغه للناس.
ومطلقات التزكية الشرعية للعلم وأهله دون قصر أو جزم إنما تصح طالما صحت المؤسسة، وقامت بحق تلك التزكيات المطلقة.

نأتي بعد ذلك لشيخ الأزهر، وهو المنصب الذي استحدث في أواخر القرن الهجري الحادي عشر، في عهد الدولة العثمانية (أي بعد ما يقرب من سبعة قرون من إنشاء الجامع الأزهر)، وقد كان النظام المتبع قبل ذلك أن ينتخب من بين كبار العلماء (ناظر) يشرف على شؤونه منذ إنشائه إلى عهد الحكم العثماني؛ حيث استحدث منصب شيخ الجامع الأزهر ليتولى رئاسة علمائه، ويشرف على شئونه الإدارية، ويحافظ على الأمن والنظام بالأزهر.

وشيخ الأزهر اليوم هو ذلك الشيخ الذي يُعين على رأس تلك المؤسسة، وكلمة (يُعين) هي أيضا كلمة حادثة بالنسبة للأزهر؛ إذ لم تعرف إلا بعد انقلاب الضباط الأحرار، أو ما يشتهر بين الناس بـ "ثورة يوليو" وتولي عبد الناصر لزمام الأمور، وهو الذي قرر أن يمسك بتلابيب كل مؤسسات الدولة، بما فيها ذلك المكان العلمي الدعوي الذي كان يتم اختيار إمامه وكبيره من خلال كبار علمائه ومشايخه، بغض النظر عن جنسيتهم أو لونهم أو عرقهم أو رأيهم السياسي.

ورجل قومي عتيد كعبد الناصر لم يكن ليسكت عن هذا؛ فكيف يرضى بأن يتولي أكبر كرسي ديني في البلاد رجل مغربي الأصل؛ كالشيخ حسن العطار رحمه الله، أو رجل جزائري الأصل تونسي المولد تعلم وتخرج في جامع الزيتونة لا من الأزهر؛ كمحمد الخضر حسين رحمه الله؛ ذلك الجبل الأشم الذي طالما صدع بالحق في وجه السلاطين وأصحاب الجاه، وهو صاحب القول المأثور: "إن الأزهر أمانة في عنقي أسلمها حين أسلمها موفورة كاملة، وإذا لم يتأتَ أن يحصل للأزهر مزيد الازدهار على يدي، فلا أقل من ألا يحصل له نقص".

وقد استقال هذا الشيخ الجليل من الأزهر بعدما قام عبد الناصر بضم القضاء الشرعي إلى القضاء الأهلي أو المدني، وقد جهر الشيخ بوجوب حدوث العكس. وكيف لا يجهر بذلك وهو صاحب النقض الشهير لذلك الكتاب الخبيث للمدعو علي عبد الرازق والمسمى "الإسلام و أصول الحكم"، وكتاب "نقض كتاب في الشعر الجاهلي"، الذي كان باعتراف طه حسين من أهم الردود عليه وأشدها حجة.

ولما جاء وفد من عبد الناصر يساومه على تلك الاستقالة أجابه قائلًا: "قل للرئيس يكفيني من دنياكم كسرة خبز وكوب لبن، وعلى الدنيا بعدها العفاء وقد ضمنها الله لي، وهذه استقالتي تحت تصرفكم".

بعد ذلك الموقف بفترة قرر ناصر أن يوقف تلك العملية الانتخابية الاختيارية بالأزهر، وجعل المنصب الخطير بالتعيين. ومِن مَن؟! من رئيس الدولة. تخيل يا مؤمن!
ضابط جيش أو حتى رجل مدني محدود العلم خاصة الشرعي، يقرر من يعتلي كرسي الإفتاء، ومن يتصدر تلك الجامعة العلمية العريقة، وذلك المنبر الدعوي الجليل!

بأي حق وفي أي شرع وتحت أي منطق؟!

المعروف أن شيوخ ما قبل يوليو 52 كانوا يتمتعون بالاستقلال والحرية، التي كانت تورثهم قوة وعزة أمام الملوك والسلاطين؛ حيث لم يكونوا تابعين لا لحكومة ولا لحكام، وكانوا يتقاضون رواتبهم من ريع الأوقاف الإسلامية، التي يشرف عليها الأزهر نفسه، لا من خزينة الدولة أو الحكومة.

وقد ظل منصب شيخ الأزهر محاطًا بالهيبة والوقار، ولا يستطيع أحد من الولاة عزل صاحبه، حتي أقدم الخديوي إسماعيل على عزل الشيخ مصطفي العروسي رحمه الله، وهو الشيخ العشرين في سلسلة مشايخ الجامع الأزهر، في سابقة هي الأولي من نوعها في تاريخ الجامع الأزهر، وقد شجعه ذلك على تكرار مثل هذا العمل، وهو الأمر الذي عرض المنصب للاهتزاز حتى تولاه خمسة في عهده؛ بحيث لم يبق فيه أحدهم أكثر من ثلاث سنوات.

ومع الجهود المبذولة لتطوير الجامع الأزهر وإصلاحه ظهرت جماعة كبار العلماء في عام (1239هـ ـ 1911م)، في عهد المشيخة الثانية للشيخ سليم البشري رحمه الله، وتكونت من ثلاثين عالم من صفوة علماء الأزهر، واشترط في دخولهم هذه الهيئة ألا تقل أعمارهم عن 45 سنة، وأن يكون قد مضى على العضو وهو مدرس بالجامع الأزهر عشر سنوات علي الأقل، من بينها أربع سنوات في القسم العالي، وأن يكون معروفًا بالورع والتقوى.

وقد نص قانون الأزهر أن يكون اختيار شيخ الجامع الأزهر من بين جماعة "هيئة كبار العلماء"، وكان ذلك يضمن ما يجب أن يكون عليه شيخ الأزهر؛ من العلم والمعرفة والسمعة وحُسن الخلق. باستثناء حالة واحدة عيّنها الملك فاروق عام 1945، ولم يكن حينئذ عضوًا في جماعة كبار العلماء، وهو الشيخ مصطفي عبدالرازق رحمه الله.

أما بعد انقلاب يوليو 52 وفي ظل القانون 103 لسنة 1961 فقد أصبح شيخ الأزهر موظفًا كبيرًا في الدولة بدرجة رئيس وزراء، وقد جعل هذا القانون شيخ الازهر هو الإمام الأكبر وصاحب الرأي في كل ما يتصل بالشئون الدينية، وفي كل ما يتعلق بالقرآن وعلوم الاسلام، على أن يتم تعيين شيخ الأزهر بقرار جمهوري من بين أعضاء مجمع البحوث الإسلامية، وهم هيئة كبار العلماء في القانون القديم 26 لسنة 1936، والذين كان ينتخب من بينهم شيخ الأزهر؛ ولكن ألغيت الهيئة في القانون الحالي 103 لسنة 1961، وحل محلها مجمع البحوث الإسلامية، (والذي يأتي أعضاؤه أيضًا بالتعيين)، وكذلك رئيس جامعة الأزهر، وعمداء الكليات الأزهرية، بل وشيوخ المعاهد الأزهرية، وهذا عكس سيطرة الدولة التدريجية على الأزهر، والذي أصبح شيوخه من الإمام الأكبر وحتى شيخ المعهد موظفين حكوميين، وانتفت عن بعضهم الاستقلالية الدينية المطلوبة.

ومع ذلك ظلت هالة القداسة والتعظيم، وظل الإصرار على وصفه بالإمام الأكبر والأعظم، وإلزام الناس بنتائج تلك الألقاب ولوازمها!

لا أنكر أن هذا التعيين الجمهوري لم يمنع بشكل مطلق أن يعتلي سدة الأزهر رجال محترمون، لم تمنعهم هيبة حاكم أو سوط طاغوت من أن يصدعوا بكلمة الحق في وجهه وأن يعرفوا للمنصب حقه، وانطبق على بعضهم ما قاله الشيخ محمد الخضر حسين رحمه الله في رسالته (الحرية في الإسلام): "ولا نجهل أن القرون السالفة تمخَّضت فولدت رجالًا، تمتلئ أفئدتهم غيرة على الحق والعدالة، فصغرت في أعينهم أبهة الملك، وازدروا بما يكتنفها من أدوات الاستبداد، فجاهروا بالنصيحة المُرَّة".

لكنني أصر هنا على إجلاء وتوضيح فكرة عدم لزوم التزكية في حالة التعيين، ويبقى أن الأصل هو الكسب والجهد والثمرة، بعد فضل الله جل وعلا وتوفيقه.

إن المنصب إذا أردناه حاكمًا أو قاضيًا في الأمور المختلف فيها وأردنا له أن يبقى بوقاره وهيبته واستقلاله وقوته =يجب أن ينزه عن الانتماء السياسي، والولاءات الحزبية، وهو ما لم يحدث في حالات متعددة ومعروفة.

لذلك كان لابد في تقديري من وضع الأمور في نصابها، وبيان أنه على الرغم من الاحترام الكامل والتقدير المطلوب والاعتراف بالفضل لأهل الفضل ومستحقيه، إلا أنه في ظل هذا الهوس الإعلامي بالتقديس، وتلك الشعوبية والعنصرية المقيتة التي تتعالى نبرتها -ينبغي أن نُذَكِّر أنه لا الأزهر شعب الله المختار، ولا مؤسسته كهنوتية معصومة تتلقى وحيًا إلهيًّا أو تزكية ربانية خاصة، ولا شيخه أو إمامه اليوم يأتي نظرًا لسبقه العلمي أو ثمراته الدعوية ونتاجه التصنيفي أو مواقفه البطولية؛ بل أحيانا ما كان يعتلي سدته من يعلم هو نفسه أن من بين رجالاته من هم أعلم وأكثر جهدًا وثمارًا.

وربما من الأمثلة الواضحة على ذلك وجود قامة علمية كفضيلة الشيخ الشعرواي رحمه الله تعالى حيًّا يرزق في مصر، بينما كان هناك آخرون يتولون مشيخة الأزهر؛ فهل كانوا مع كامل الاحترام لهم هم الأعلم والأعظم ثمرة من الشيخ طيب الله ثراه؟!

هذا طبعا بخلاف من ليسوا من رجالات الأزهر، ومع ذلك علِموا وعلَّموا غيرهم، ولم ينقطع الخير عنهم، رغم أنهم ليسوا أزاهرة.

إن العلم والتعليم والدعوة إلى الخير ليسوا حكرًا على مؤسسة بعينها، وليست لطائفة دون أخرى، أو لعرق دون غيره، وخير دليل على ذلك أن ما يدرسه الأزهر من مذاهب الأقدمين وتصانيف الأولين منها الكثير والكثير لرجال لم يكونوا أزاهرة ولا مصريين، وقد ولدوا و ماتوا دون أن يسمعوا عن الأزهر ولا عن مشيخته.

دعونا إذن من ذلك الإصرار على تلك الشعوبية المقيتة والعصبية العنصرية، ولنفكر بعقولنا جنبًا إلى جنب مع تدبر نصوص شرعنا، ولنسأل بعد تلك المحاولة للحراك الذهني الحر:

هل الإمامة العظمى أو الكبرى ألقاب ومناصب تعطى؟ أم أنها حياة ومواقف وثمرات ونتائج وقبل كل ذلك فضل واصطفاء يوفق الله له من يشاء؟

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: 24]





"أنا لن أشهد على زور، ولن أشهد إلا بما رأته عيناي، ولن أضع خطي وختمي عليه، حتى لو سوّده الباشا بأختام النقباء جميعهم".

قلّب عمر مكرم بصره في عرضحال الباشا مراجعًا أرقامه، ثم رفع العرضحال عاليًا ليراه مرسول الباشا: "أما صرفه على سد الترعة فإن الذي جمعه وجباه من البلاد يزيد على ما صرفه أضعافًا كثيرة، وأما غير ذلك فكله كذب لا أصل له، وإن وجد من يحاسبه على ما أخذ من القطر المصري من الفرض والمظالم لما وسعه الدفاتر".

انصرف مرسول الباشا حاملًا رسالة عمرمكرم إلى القلعة، بينما استمر مكرم في تأمله:
هذه الحسابات ليست صحيحة، وإن شهد عليها الجميع، إن حملتُ عن الباشا وزره أمام الباب العالي فمن يحمله عني وعنه أمام الله؟ عجبًا! يريد مساعدتي الآن، ويعلم أن شهادتي له ستبيّض صحيفته أمام الباب العالي، لماذا إذن رفضها عندما وصلت بوارج الإنجليز ثغر العجمي، أعلنت له مع باقي العلماء استعدادنا لقتال الإنجليز فرفض قائلًا: ليس على رعية البلد خروج، إنما عليهم المساعدة بالمال لعلائف العسكر.

علائف العسكر! كم آلمتك هذه العبارة يا عمر، لكن الأسطول الإنجليزي الرابض على شواطئ العجمي ورشيد لم يترك لنا مجالًا، كان عليّ تغليب المصلحة العامة وجمع المال لعلائف العسكر كما طلب الباشا، نعم.. جمعت له المال لكنني لم أنتظر حتى يأتي من الصعيد؛ فحصنت القاهرة واستنفرت الناس للجهاد، وأمرت مجاوري الأزهر بترك حضور الدروس؛ فرجال الأزهر رجال جهاد ودفاع كما أنهم رجال دين وعلم.

الباشا يعلم جيدًا ماذا فعل عمر مكرم عندما وصل الفرنسيس مصر، وكيف قدت المصريين في ثورتهم الأولى والثانية ضد الفرنسيس حتى تم جلاؤهم بفضل الله ومنته.

الباشا يعلم أيضًا تمام العلم أنني من ساعدته على الوصول للحكم، يوم أن ضج أهل القاهرة باعتداءات فرقة خورشيد باشا من (الدلاة) على الأموال والأعراض؛ بل إن خورشيد نفسه فشل في كبح جماحهم واستمر في فرض الضرائب الباهظة؛ يومها اجتمع العلماء في الأزهر، وتوقفوا عن إلقاء الدروس، واحتشدت الجماهير في الحواري والأزقة وأقفلت الأسواق والدكاكين، حاولت يومها التفاوض مع الوالي ليرجع عن ظلمه إلا أن المفاوضات فشلت وأصرت الجماهير على خلع خورشيد.

رفعنا يومها المظالم إلى المحكمة، واجتمع العلماء في دار الحكمة وقرروا عزل خورشيد وتعيين محمد علي بدلًا منه، بعد أن اشترطنا عليه أن "يسير بالعدل، ويقيم الأحكام والشرائع، ويقلع عن المظالم، وألا يفعل أمرًا إلا بمشورة العلماء، وأنه متى خالف الشروط عزلوه".

لم يعد خورشيد ساعتها ولي أمر شرعي فـ"أولو الأمر هم العلماء، وحملة الشريعة، والسلطان العادل، وهذا رجل ظالم".

وهاهو محمد علي يخالف الشروط التي اشترطها عليه العلماء في دار الحكمة؛ كيف جرؤ محمد علي على إلزام الشيخ الشرقاوي شيخ الأزهر بلزوم داره وعدم الخروج منها ولا حتى إلى صلاة الجمعة؟! لقد غدر بمن ساعده على تثبيت أقدامه في السلطة، ويريدنا أن نذهب إليه ونخاطبه مشافهة؟! ألا والله لن نذهب إليه ما دام مقيمًا على هذه المظالم والبدع، هو من خالف بيعتنا إياه على العدل وحكم الشرع، وهو من نقض أيمانه وعهده! حسنًا سنرى فيه أمرنا حين يسلمه مرساله العرضحال الذي سطرناه ونرى ماذا سيفعل.

ما يؤلمني وبشدة هم زملائي من العلماء والمشايخ؛ تمكن محمد علي من بث الشقاق والتنافس بينهم، منّى الكثيرين منهم بالسلطة، وألقى إليهم الفتات من أوقاف الأزهر! يشق عليّ أن أرى العلماء "وقد زالت هيبتهم ووقارهم من النفوس، وانهمكوا في الأمور الدنيوية والحظوظ النفسانية والوساوس الشيطانية، ومشاركة الجهال في المآثم، والمسارعة إلى الولائم في الأفراح والمآتم، يتكالبون على الأسمطة كالبهائم؛ فتراهم في كل دعوة ذاهبين، وعلى الخوانات راكعين، وللكباب والمحمرات خاطفين، وعلى ما وجب عليهم من النصح تاركين".

يشق عليّ أن أرى العلماء وقد تحولوا إلى وشاةٍ ينقلون حواراتنا للباشا، وإلا كيف علم بالحوار الذي دار بيننا في بيت (السادات) .. مممم .. (السادات) و (الدواخلي) و(المهدي).. أين هم جميعًا من البلاء الذي وقع فيه العامة؟ من يحمل هم العامة إن لم يفعل العلماء؟

لن يطوع محمد علي إرادتي ولن يرغمني على الإقلاع عن مطالبته بحقوق الناس، و"كما أصعدته إلى الحكم فإنني قدير على إنزاله منه". ولن أذهب لمقابلته في القلعة، إذا أراد مقابلتي فلينزل إلى بيت السادات لتكون المقابلة على السواء.

وفي القلعة..

كان الباشا ثائرًا هائجًا منتفخ الأوداج:

"من يظن نفسه مكرم هذا؟ يريد الباشا ينزل إليه؟! حسنًا! سأنزل في بيت ابني ابراهيم بك وليأتِ العلماء جميعًا"

ازداد حنق الباشا على عمر مكرم؛ حيث لم يحضر لقاء الباشا بالعلماء متعللًا بمرضه؛ فأعلن في الجمع الحاشد من العلماء ضربته القاضية لعمر مكرم، وعزله عن نقابة الأشراف، ثم نفاه إلى دمياط عشر سنوات كاملة.

الذي لا يعرفه عمر مكرم أن زملاءه من العلماء باركوا هذه الخطوة كثيرًا، وذموا عمر مكرم أشد ما يكون الذم لينالوا حظوة عند الباشا، واشتروا وباعوا في سوق النفاق الرائجة، وتقلدوا المناصب الرفيعة وهو في منفاه.

الذي لا يعرفه عمر مكرم - الذي مات في منفاه الثاني إلى طنطا - أن شيوخ الوقت لم يهنأوا بتلك المناصب وذاك الفتات؛ فصديق عمره الشيخ السادات الذي تولى نقابة الأشراف بدلًا منه صادر الباشا أمواله بعد وفاته؛ بل وهدد أرملته بإغراقها في النيل إن لم تفصح عن ممتلكاته وثروته، أما الدواخلي فقد نفاه الباشا إلى دسوق ولاقى جزاء سنمار.

رحم الله العالم العامل الصادع بالحق الذي لم يسمح لنفسه أن يكون شيخًا من مشايخ الوقت.



سيد الكلاب الوديعة

محمود توفيق

استيقظ من غفوته التي لم تستمر لأكثر من نصف الساعة مشوشًا تمامًا، تحت التأثير الفياض لحبة هلوسة جرَّبها لأول مرة، وتحت تأثير إعياء السهر الطويل الذي استسلم في نهايته لهذه النومة السريعة.

استيقظ وفي حلقه حشرجة ودفء من لعابه السكري، وعيناه ثقيلتان ومستغربتان كعيني الرضيع في إرهاصات تبصُّرهما، عندما تكونان حائرتين مشتتين بين الضوء والظلال والوجوه المنحنية على القماط.

لا يكاد يذكر أين هو بل ولا من هو، وانشغل بما يراه فوقه وهو ممدد: كمثل فراشات بيضاء طاهرة، سكنت في أماكنها في سباحتها في كحل العتمة. وما أن مد أصبعًا مترددًا ليمسَّ إحداها، حتى بدأت تبتسم وتؤكد تفاصيلها، واتضحت له حقيقتها، كأزهار بديعة في شجر ياسمين.

استغرب أشجار الياسمين التي يتمدد تحت زهرها البشوش عائمًا في نهر هادئ من النسيم، حتى حاصره وهم مباغت بأنه قد مات (شهيدًا)، وهذا الياسمين شيء طيب ورمزي يستقبله في قبره على سبيل الترحاب؛ فبدأ يتلفَّت ويفحص وضعه في كسل وفتور، فأفاق من وهمه المباغت بعدما تبيَّن الحوضَ الطيني المستطيل الذي يرقد فيه في سياج من الرخام البارد بمدخل عمارة راقية.

قام مهدودًا مخدرًا في خليط من روائح الزهر والسماد العضوي والعشب المبلل، وبقايا رائحة القنابل المسيلة للدموع التي ظل منها نفثات عالقة بالهواء البارد، هذا بالإضافة لرائحة مختمرة خفيفة لغائطه الحديث الدافئ الذي تعسَّر في إخراجه وقتًا بين شجرتي ياسمين بالقرب من مرقده، حتى أخرج هذه الكمية التي تليق بأمعاء قط، لينام ويستيقظ ناسيًا ما حدث.

تومض في وعيه أحاسيس وأحاديث، وصور خافتة ومبهمة، وهو يشعر أن كل ما حوله قد أحاط به من قبل، حتى خليط الروائح هذا قد شمه في زمن ما. اضطرب شعوره بالزمن، ولم يعد يستطيع التفرقة بين ما فات وما هو آت. إنه في الليلة الثورية الهاربة، وبعد أن اشتغلتْ حبة الهلوسة في أول تجربة له معها، والتي لا تشبه أي شيء من الحبوب التي يتعاطاها، يشعر أنه مستدرج، متورط، في قصة كالساقية تدور به، بتداعي الذكريات التي ستلاحقه للأبد بومضات من توابعها، أو لعلها تدور بإلحاح الأحلام التي ترسل نذرًا من نبوءاتها المستقبلية.

قصة تلعب به بالتكرار اللانهائي، لا يعرف في دوارها الذي يكاد يملأ فمه بالزبد كفم الثور، لا يعرف إن كان قد حلم بما يحيط به الآن من قبل أن يقع، عدة مرات، وهاهو أخيرًا قد وقع، أم أنه يعيش في التكرار المستمر لما حدث، كشريط تسجيل كلما انتهى بدأ يعمل ذاتيًا من جديد.



بعد قليل، بدأ ينقشع عن (سيد الخديوي) بعض من ضباب التشتت تحت أثر تلك النومة السريعة والثقيلة، التي لعبت به فيها أحلام كئيبة مجتزأة ومختلطة، وأحلام أخرى مسفَّة ومحرجة، استيقظ منها أحمر العينين يسيل لعابه، وقد علَّم العشب على وجنته التي تمتعت بقدر من الدفء بالتصاقها بالتربة حُرِم منه بقية جسده النحيف المشدود الذي يعطيه عمرًا أقل قليلًا من سنواته الثماني عشرة.

تستيقظ فيه وهو يتمطَّى جالسًا على الإفريز الرخامي لحوض الزرع حاسة السمع الحيوانية الخطرة لديه، على تفاصيل أسرة تقطن بالطابق الأرضي نوافذها أمامه في مدخل العمارة الراقية، لا يفصل بينه وبينها إلا حائط. هذه السلسلة من التفاصيل التلقائية البسيطة، والتي يشعر أيضًا وكأنه سمعها من قبل، أوقدت حواسه الفاترة كما كانت تفعل فيه دائمًا تلك الفرص المنتهبة للتلصص على حجرات المساكين المهلهلة في الصفيح والخيش، وخيام الإيواء التي تنفضها الريح؛ والتي لا يعرف عنها هذه الفرص وهو في هذه الحالة من أثر الحبة، إن كانت تجارب عزيزة وقعت، أم أحلامًا باذخة التفاصيل تراوده وتلهب نومة العازب.

مد يده وحك صدره من تحت الفانلة القطنية الحمراء المتسخة والسترة البنية المفتوحة التي بهت لونها، والتي انتفخ في بطانتها الأسفنجية السميكة وياقتها الكبيرة، انتفاخًا كاذبًا لا ينسجم مع نحافة وجهه الدهني المنحوت الذي التهب في حب الشباب ولا مع عنقه الطويل الناحل، كأنه طائر له رقبة صلعاء نحيفة وملتهبة، لا تنسجم مع هذا الجسد المنتفش في الريش؛ هذا الانتفاخ، وهذه النحافة، يعلنان معًا عن إجرامه الناشئ الأصم، الذي به عاهة قديمة من المسكنة.

يقوم محتفظًا بما علق بملابسه من وسخ الطين وعوالق العشب والنمل الكبير، كما تقوم الدواب الغافلة من رقدتها في الحقول، يسلك أذنيه بإصبعيه، يقطع الخطوتين ويضع أذنه اليسرى على الحائط، يسيل خيطًا من لعابه وهو يستمع، لاختلاط الأصوات الأنثوية والذكورية على اختيار القناة الجديرة بمتابعة الأحداث الجارية قريبًا من بيتهم من خلالها، هذا صوت مراهقة تأكل أحرف الكلمات، له رنَّة غير مبالية، لم يعجبها الأمر، تنسحب إلى غرفتها لتشاهد حلقة الليلة من المسلسل التركي عبر الكمبيوتر، وهذا شاب ضيق الصدر، مختصر التعابير، يفوِّضهم في الاختيار على أن يرحموه من هذه المذيعة البومة، والمرأة المجلجلة الضحكة كانت تكلم (سوسن) في التليفون، عن ساحة الحرب المشتعلة في المنطقة، وهذه الأيام السوداء؛ وفيما بدأت المرأة تذهب بعيدًا ويذهب معها حسُّها، طرب سيد لصوت شابة حانية النبرة، تخبرهم أنها ستخرج بعض الهامبورجر من الثلاجة، فهل هناك من يرغب في أن تعد له معها، فقطع رجلان كأنهما الأب والابن الشاب اختلافهما حول حيادية القناة وحول ما لم يفهم (سيد الخديوي) منه شيئًا من حديث السياسة، ورحبا بإعداد الهامبورجر، ثم لف الصمت الشقة كلها، صمت شعر فيه سيد بنوع من الاعتداء والزراية مثلما شعر عندما تعقَّد حديث الرجلين وعجز عن فهمه.

أثارته رائحة الهامبورجر على النار التي بدأت تتصاعد، وأججت غريزة التلصص ونشَّطت خياله المقتحِم، فتخيل الشابة بجلباب بيتي شتوي ضيق يعلوه زغب القطن، مليء بأزهار قرنفلية صغيرة، جلباب علقت به تلك الرائحة الدافئة للملابس الشتوية المخزَّنة، يضم هذا الجلباب كتفيها الأنثويين الضامرين، بطريقة تنطق بضعفها واحتياجها لاحتضان رجولي. فتح مطواته ووضعها في فمه، وهو لازال يحيا في فعالية حبة الهلوسة، التي أعطته نفس الجسارة التي ينتهك بها ستر ضحاياه المساكين النائمين في الزوايا ليلًا خلف أحبال الغسيل المنشور، أو من أذعنوا للجوع والقيلولة داخل خيام الإيواء المهترئة التي تلعب بها الريح بعد أن انهارت بيوتهم، أو من شدوا على ثيابهم وهم يمددون أجسامهم المرهقة على الكراسي الخلفية المنزوعة البطانة في العربات الخردة المركونة على هوامش الأحياء التعيسة.

ومشي إلى الناحية التي تنبعث منها رائحة شواء الهامبرجر وقلي البطاطس، بخطوات جانبية وظهره للحائط، بوجه عليه تلاويح الخبال، حتى توقَّف تحت النافذة. يشب على طرفي حذائه، يلصق عينيه الجائعتين بأخصاص النافذة، وقد أوشك أن يحرقها بأنفاسه الساخنة، يضع نصل مطواته بين الدرفتين، يحرِّكها بعناية وخبرة، بدأت النافذة تفقد إرادتها وتستجيب له، تهزها ريح جهنمية من قعر نشوته المضطرمة، ستنفتح، ستنفتح، يرتد مرعوبًا فجأة وقد رأى أمه تملأ الدنيا أمامه من فناء مفتوح على سماء النهار ونداءات ملعب، تضع طرحتها على فمها وتلتقط حجرًا وتهدد: (انزل يا كلب)؛ فانخسأ مرة واحدة وهدأت أنفاسه والتأم برعم شوقه، وتراخت أعصابه المشدودة وهو ينزل على كعبيه، وأعطى ظهره للنافذة المغلقة وانزلق ببطء حتى جلس منهزمًا.

إنها الصورة الأقدم، خرجت من قعر بئر ذاكرته، أقدم ما يذكر من طفولته، باغتته فقطعت عليه الطريق لنزقه وشهوته المجنونة، لا زالت نابضة بالحياة تلك الصورة الأولى وإن تشققت قليلًا وعلاها الاصفرار، تتوسطها أمه المتوفاة، على وجهها تلك الصرامة المخيفة للمدافعين عن أنفسهم، للمرابطين على حرماتهم. بها قوة بائسة، غير تلك القوة الجرانيتية التي تكسو ملامح المرأة في تمثال نهضة مصر.

كان وقتها طفلًا صغيرًا يجلس في فناء البيت يرتدي جلبابًا بنصف كم، مربوط على ساعده رباط به لحم ختانه، سيفك عن تلك اللحمة العفنة الرباط وتلقَى بعد مرور أسبوع من الختان. وعليه آثار مرض القوباء الجلدي الذي ألهب ذقنه، وعلى جبهته كفٌّ من نحاس يتدلى من خصلة من شعره الذي كان بنيًا، لصقته أمه في شعره بلبانة ممضوغة لتمنع عنه العين.

وكانت الكلبة المهقاء خلفهما ممددة ترضع جراءها النهمة على أثدائها وهي تتابع المشهد بلا مبالاة، عندما عايش مصدومًا ولأول مرة تكلفة من تكاليف العيش، وأمه تهدد بالحجر في يدها المتوترة من شدة الحنق، بتقاسيم وجهها المغتاظة، ونظرات حقدها التي تقدح شررًا، تهدد هذا الذي اقتحم ستر البيت من ناحية الملعب، يتابع أثر الكرة التي سقطت في الحوش، وقد طلَّ رأسه من فوق حافة السور الذي تسلقه بصعوبة، وقد تشبث به بين قطع الزجاج المكسّر على الحافة، محمولًا على الأذرع، وعينه اللصة تضرب يمينًا ويسارًا بحثًا عن شيء يروي ظمأ مراهق غارق في أوهام بلوغه الإباحية، وعلى وجهه ابتسامة بلهاء لزجة، كشفت لثته العليا كلها.

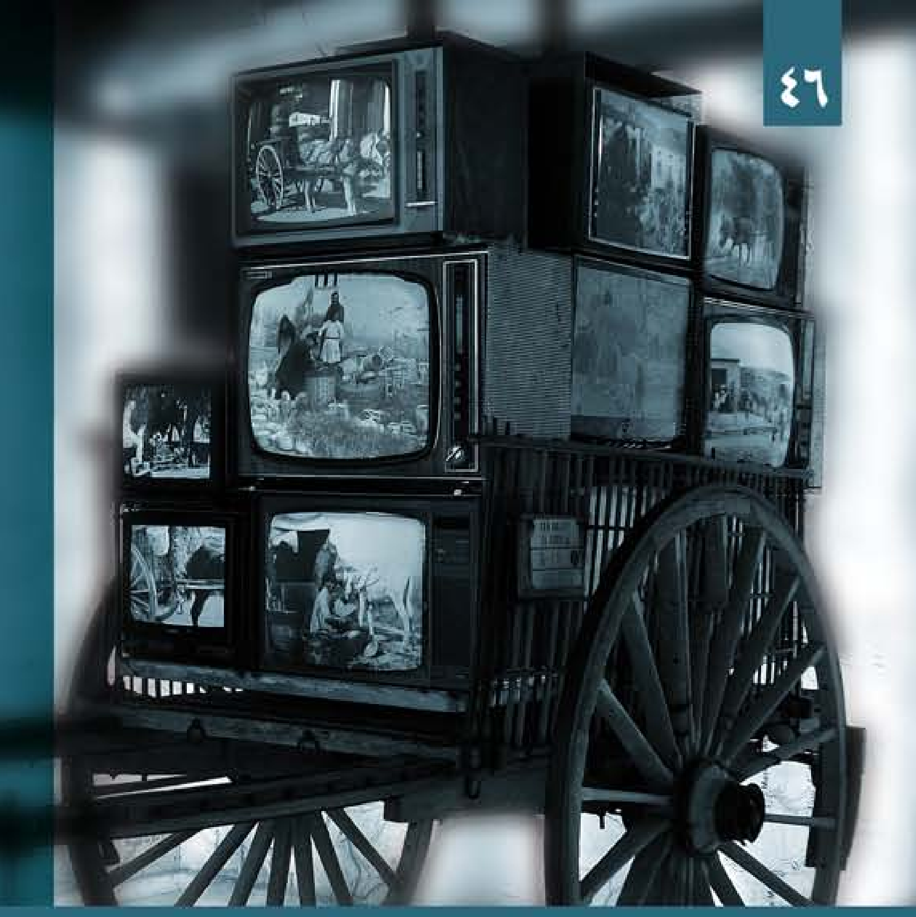
أما أخته الجميلة (ودَّة) فكان خرَّاط البنات قد خرطها حديثًا، جالسة بالقرب من الباب الكبير تلعب (الجيلان) بالحصى، وما أن رفعت أمها الحجر وسبَّت الفتى، حتى اختفى رأسه من عند السور بسرعة اختفاء أرنب، ارتمى على الأرض خارجًا وتبادل الضحكات مع أصحابه، لترمي الأم الكرة إلى الخارج وهي تتفل، أما الحصى التي كانت تلتقطه ودَّة في لعبة الجيلان، فقد سقط من كفها التي تسرَّبت إليها رقة الأنوثة، وجرت إلى الحجرة هاربة كغزالة خائفة، تستشعر ثقل التغيرات العظيمة التي طرأت عليها، إنها فهمت ما حدث بعين طريدة لا غير، فهمت أن هذه الإطلالة المقتحمة الوقحة كانت عليها هي وحدها.

بدأ (سيد الخديوي) من يومها يتهجى هذا العار من بيتهم الغريب ذي الحوائط المضروبة بالطين والتبن، الذي لا يشبه البيوت الأخرى في الشارع المقامة بالطوب الأحمر، بيتهم ذي الحوش الواسع غير المسقوف، المنكشف للمتسلقين من ناحية الملعب، وللجيران في النوافذ والشرفات من الناحية الأخرى التي يطل عليها، الذين لا يمكن للأم أن تهددهم هم أيضًا بحجر حتى لو كانوا يتابعون من أماكنهم كل شيء في حياتهم بشغف وبأعين غير هاربة؛ إنهم هم أيضًا ينظرون لانكشاف هذه الأسرة تحت أنظارهم؛ لكن لكي ينعموا فيه برؤية سترهم.

لا سقف هنا فوق هذا البيت إلَّا الصفيح الذي على حجرة نوم الوالدين وحدها، ذات الدرجين الحجريين الكبيرين، كأنهما منهوبان من معبد أثري، حفرت الكلبة المهقاء تحتهما بيتًا لأجيال متتابعة من الجراء؛ وتلك الكلبة الأم البيضاء التي لو ثبتت محلها لبدت كأنها تمثال من الجبس، تشعر تجاهه بنوع من أمومة.

فبعد كل مرة يقضي فيها حاجته في القصرية الصاج المطلية بالأبيض، تضع أمه وجهه في حجرها وهو لا زال مكشوفًا من خلفه للضوء والهواء والذباب، لتقوم الكلبة (سعيدة) بالمهمة التي دربتها الأم على القيام بها من لحس وتنظيف.

وكانت الأيام طيبة يسيرة، يلعب كل يوم بهذه الكلاب المسالمة الكسولة نهارًا وهي تمشي وديعة في رموشها المسدلة البيضاء، وألسنتها أمامها، مستجيبة لأوامره، متفهمة طفولته؛ ثم تتحوَّل في منتصف الليل، لتلعب هي بأعصابه، حينما لا يظهر في ظلام الحوش الدامس إلَّا الالتماعات المخيفة لأعينها القرنفلية. كان هذا هو مبلغ الخوف ومعنى الخوف عنده، إلى أن راحت طيبة الأيام وعرف منذ أن أطل الفتى أمامه من حافة السور معنى الخوف من البشر. وها هو في الليلة الثورية الهاربة، خائف ومخيف، شريف ومشبوه، يسعى جيئة وذهابًا، بين فراشات ليست أكثر من زهر الياسمين، وأعين كأعين الجن ما هي إلَّا أعين كلابهم المهقاء الوديعة.



نحو ثورة على الإعـــلام

معتز رضا زاهر

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:
فمما لا شك فيه أن وسائل الإعلام تلعب دورًا غاية في الخطورة في تشكيل الوعي الذي يكون دائمًا هو الدافع للفعل أو المثبط عنه، وقد علم ذلك جيدًا من بيدهم السلطة والقوة؛ فعملوا على ما يلي:

1- الإكثار من إنشاء وسائل الإعلام، سواء المرئية أو المسموعة أو المقروءة، إما عن طريق الدولة ومواردها، أو عن طريق التسهيلات الكبيرة التي تقدمها لأصحاب رؤوس الأموال ذوي التوجه العلماني، أو أصحاب التوجه الديني في الظاهر والموالي للسلطات في الباطن، أو على الأقل الساكت عن انتقادها وتوجيه الجماهير لتقويمها.

2- تحسين وتطوير تلك الوسائل الإعلامية، عن طريق ضخ الأموال المخصصة لها، وصناعة الرموز وتنجيمهم، وتنويع المعروض؛ من أخبار وأفلام ومسلسلات ومسرحيات، والأغاني والمسابقات والإعلانات... إلخ.

3- التركيز على الجانب الجنسي بدرجاته المختلفة؛ بداية من مجرد الظهور بالملابس المثيرة للغرائز، مرورًا بالرقصات الخادشة للحياء، ووصولًا إلى مشاهد القبلات والرذيلة الصريحة، تحت اسم العشق أو الحب أو غير ذلك.

4- الإتيان ببرامج دينية موالية للدولة على نفس محطات الرذيلة؛ إضفاءًا للشرعية، ومن أجل عدم الظهور بصورة الشيطان المحضة، فها نحن نحب الدين وليس بيننا وبينه أي عداء!

5- تضمين التوجهات السياسية أو الثقافية العلمانية للدولة من خلال المادة الإعلامية، سواء كانت هذه المادة أخبارًا؛ فيذيعون أخبارًا لم تحدث؛ كقيام جماعة ما بتفجير مكان ما، أو اغتيال شخص ما، من أجل تشويه تلك الجماعة التي تعاديها الدولة لأنها معارضة لسياساتها الفاسدة.

أو سواء كانت تلك المادة "فنية" كفيلم أو مسلسل، يكون فيه شخص ملتحٍ ينافق المجتمع ويظهر أمامه بصورة التقي وما هو إلا شيطان يمشي على الأرض، فيأتون به وهو يصلي مع المصلين ثم يختفي ليسرق أموال اليتامى التي يجمعها تحت اسم الصدقات، أو ليقوم ببعض العمليات التي يقتل فيها غير مسلمين يصورهم الفيلم بأنهم أسوياء السلوك حريصون على الخير.

6- استغلال وقائع حدثت بالفعل من أجل تحقيق هدف سياسي أو ثقافي؛ سواء بتضخيمها وتسليط الضوء عليها أكثر من الطبيعي، أو اختلاق وقائع أخرى منطلقة من الواقعة الجزئية الصغيرة، وقليل من يسألون عن التفاصيل. هذا جزء صغير من بعض صنيع من بيده القوة أو السلطة بالإعلام؛ من أجل أهداف كثيرة قد نستطيع حصرها في هدف كبير واحد، ألا وهو تشكيل الوعي كما سبق، تشكيل الوعي بما لا يتعارض مع توجهات الدولة والسلطة، التي غالبًا ما تكون توجهات فاسدة تحتاج إلى غطاء تجميلي، تحصله الدول عن طريق الكذب في نقل الحقيقة، وتخدير الرأي العام بالتوافه المختلفة التي تلهيه عن قضايا كبيرة تحدث حوله؛ فتجد المشاهد مشغولًا للغاية بحادثة قام بها فصيل سياسي معارض للسلطة، وهي في الحقيقة لم تحدث، أو حدثت ولكن نسبها الإعلام لهذا الفصيل كذبًا، أو تراه مهتمًّا جدًّا بمباراة كرة قدم سوف تقام، أو تجده ينتظر على أحر من الجمر ما سيحدث في الحلقة الجديدة من المسلسل المفضل عنده، لا يتوقف الانشغال عند ذلك فحسب؛ بل يعقبه كلام وحوارات مكثفة حول الحادثة أو المباراة أو المسلسل، مع الأصدقاء والأقارب وزملاء العمل.

أما ما تقوم به السلطة من ظلم وعدوان وسرقة وتقصير وقمع =فلا تجده في وعي المشاهد أو يسيطر على تفكيره، وإن تكلم عنه قليلًا لأنه لامسه بنفسه فسرعان ما ينساه بالملهيات والتوافه الأخرى، وتعود حياته لتسير بصورة طبيعية بلا تحرك لإيقاف فساد الدولة بأي طريق متاحة.

من هنا برزت الحاجة بل الضرورة إلى ثورة على الإعلام الفاسد؛ سواء كان هذا الإعلام هو الإعلام النظامي، أو الإعلام الخاص المشارك في تزييف الوعي، وتشويه الشخصية المسلمة، بل وهدمها.

سبل مواجهة هذا الإعلام الفاسد كثيرة، ولكني أركز في هذه الأسطر القليلة على جانبين، المقاطعة، وتفعيل الإعلام البديل.

. **أما المقاطعة** فتكون لوسائل الإعلام تلك على كافة الأصعدة، وتُنشر قوائم تحتويها جميعها على مستوى كل بلد، ويكون النشر في كافة التجمعات الممكنة، من الجامعات، والمدارس، والمساجد، وأماكن العمل، والنوادي، والفنادق، والمقاهي، والإنترنت على المواقع المختلفة وبالبريد الإلكتروني، وغير ذلك، مع أهمية صدور فتاوي للعلماء والمجامع الفقهية الحرة بحرمة مشاهدة تلك القائمة المسماة بكذا، وحرمة نقل الأخبار التي تصدر عنها، وهكذا، ولتكن مثلًا اسمها: "قائمة إعلام الفتنة"، والتي يتم تحديثها كل فترة زمنية معينة، ستة أشهر أو عام مثلًا، وتصدر رسميًّا مختومة باسم حملة المقاطعة، ومذيلة بتوقيعات العلماء والرموز المجتمعية الشريفة وذات التأثير.

• **وأما الإعلام البديل**، أو الصحافة الشعبية، أو إعلام المواطن؛ فالمقصود به: الجهود الإعلامية التي تكون خارج سيطرة الدولة ورأس المال الفاسد؛ مثل: مواقع التواصل الاجتماعي، أو القنوات الفضائية بترددات خارج نطاق تحكم السلطة، أو المنشورات المحلية الورقية.

وهذه وسيلة غاية في الأهمية قامت بسببها ثورات أسقطت أنظمة مستبدة، وتم الكشف من خلالها عن قضايا فساد كثيرة متورط بها مَن بأيديهم الإعلام الرسمي، وبالتالي لا يسلطون عليها الضوء في إعلامهم؛ مما أدى إلى توقف الفساد في هذه القضايا؛ بل وساعدت تلك الوسائل في منع مجازر كان متوقعًا حدوثها؛ كتلك الفتاة المصرية التي أخرجت هاتفها مستخدمة لبرنامج يسير للبث المباشر على الإنترنت، والذي نقلته عنها مباشرة وسائل إعلام عالمية، مما جعل قوات الشرطة أمام مسجد الفتح برمسيس تتحول من ذئب إلى حمل وديع، وعاملت المحاصرين داخل المسجد بكل رفق، إلى أن غابت عن البث المباشر فأحرقت عشرات منهم داخل سيارة الترحيلات حين غابت الكاميرا!



إنجازات الإعلام البديل أكثر من أن تُحصى، بإمكانك الآن أن تسجل مقطعًا مرئيًّا تركز فيه على منكر ما بهدف إزالته، حين تنشره على الإنترنت بكل سهولة ليصبح قضية رأي عام؛ ليتم إحراج السلطة على الملأ فتتوقف عنه أو على الأقل تقلل منه.

كذلك في أي لحظة بإمكانك أن تكتب عن واقعة ما أنت شاهد عيان عليها، قبل أن تلتقطها وسائل الإعلام الرسمية فتزيفها وتحرفها.

كما تستطيع أن ترد كذب الإعلام الرسمي، وتقف له بالمرصاد وتلتقط أخطاءه؛ لتبين للناس كيف يضللهم الإعلام... إلخ

لذلك لابد من نشر ثقافة الإعلام البديل وأهميته، كما ينبغي تدشين دورات تدريبية في مختلف المحافظات والمدن على وسائل الإعلام البديل المختلفة؛ كمواقع البث المباشر من خلال الهاتف، ومواقع التدوين المختلفة، ومواقع المرئيات.

مع التدريب على الأسس المختصرة للتصوير المرئي والثابت، والبرامج الميسرة التي تعالج تلك الصور وتحررها؛ بحذف الغير لائق مثلًا، أو الكتابة عليها، استعدادًا لنشرها على المواقع المختلفة؛ كذلك التمرين على قواعد تلقي الأخبار، وكيفية صياغتها ونشرها، وهكذا.

لم أستطع البوح بكل شيء حول هذا الموضوع المهم في هذه العجالة؛ ولكني ألقيت الضوء فقط على الخطوط العريضة له، وعلى القارئ البحث والتنقيب حول تلك الخطوط لتحصيل الإفادة الأكبر، والله الموفق.



مذهب أهل الحديث في الخروج على ولي الأمر الجائر

محمد براء ياسين

بسم الله الرحمن الرحيم

فطر الله الخلق على بغض الظلم وأهله، ومحبة العدل وأهله؛ فالعدل من المستحسنات العقلية التي لا يتوقف إدراكها على إرسال الرسل وإنزال الكتب، والظلم من المستقبحات العقلية التي لا يتوقف إدراكها على إرسال الرسل وإنزال الكتب، ولذا تجد الأمم كلها اتفقت على مدح العدل واعتقاد حسنه، وذم الظلم واعتقاد قبحه.

ومن أشد أنواع الطعن في المقالات: نصب التعارض بينها وبين ما تقرر حسنه في الفطر والعقول؛ إذ إن ذلك كاف في النفور منها ومن أهلها والتشنيع عليهم.

وقد سلك بعض المناوئين لأهل الحديث رضي الله عنهم هذا المسلك في الطعن في موقفهم في منع الخروج على ولي الأمر الجائر؛ فزعم هؤلاء أن مذهب أهل الحديث يقرُّ ظلم ولاة الأمور ويعطيه شرعية دينية!

وينبغي التمييز هنا بين هذا الصنف الذي يطعن في أخلاقية مذهب أهل الحديث في هذه المسألة ويشنع عليهم، وبين صنف آخر من أهل العلم يرون في المسألة خلافًا بين الصحابة فيزيفون لأجل ذلك دعوى الإجماع على منع الخروج، كما ذهب إلى ذلك ابن حزم في مراتب الإجماع، ونص عليه من المعاصرين الشيخ عبد الرحمن المعلمي رحمه الله تعالى؛ فالمقصود هم الصنف الأول دون الثاني.

ويمكن في هذا المقام سرد النصوص التي استدل بها أهل الحديث لمذهبهم هذا؛ لكن لما كان هؤلاء مُستندين إلى مستند أخلاقي، وهو قبح الظلم، كان من المناسب الرد عليهم ببيان البعد الأخلاقي في منع أهل الحديث الخروج على أئمة الجور.

ويتضح لنا ذلك البعد الأخلاقي بالنظر في كلام إمام من جلة أئمة أهل الحديث وهو الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه؛ قال أبو الحارث الصائغ: سألت أبا عبد الله في أمر كان حدث ببغداد، وهمَّ قومٌ بالخروج، فقلت: "يا أبا عبد الله، ما تقول في الخروج مع هؤلاء القوم"؟ فأنكر ذلك عليهم، وجعل يقول: "سبحان الله! الدماء الدماء! لا أرى ذلك، ولا آمر به، الصبر على ما نحن فيه خير من الفتنة يسفك فيها الدماء، ويستباح فيها الأموال، وينتهك فيها المحارم، أما علمت ما كان الناس فيه"؟ يعني أيام الفتنة.

قلتُ: "والناس اليوم، أليس هم في فتنة يا أبا عبد الله"؟

قال: "وإن كان؛ فإنما هي فتنة خاصة، فإذا وقع السيف عمَّت الفتنة، وانقطعت السبل، الصبر على هذا، ويسلم لك دينك خير لك".

ورأيته ينكر الخروج على الأئمة، وقال: الدماء! لا أرى ذلك، ولا آمر به". [أخرجه الخلال في السنة برقم (89)]

فالإمام أحمد رحمه الله تعالى يفرق بين الفتنة العامة والخاصة، ويؤثر وقوع الثانية على الأولى، ولا ريب أن صبر المرء على ذهاب مصلحته الخاصة من أجل مصلحة مجموع المسلمين، وتقديم مصلحة المجموع وإيثارهم على نفسه ومصلحته، من الأخلاق الحسنة الحميدة.

قال ابن تيمية: "وكثير ممن خرج على ولاة الأمور أو أكثرهم إنما خرج لينازعهم مع استئثارهم عليه، ولم يصبروا على الاستئثار، ثم إنه يكون لولي الأمر ذنوب أخرى؛ فيبقى بغضه لاستئثاره يعظم تلك السيئات، ويبقى المقاتل له ظانًّا أنه يقاتله لئلا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، ومن أعظم ما حرَّكه عليه طلب غرضه: إما ولاية، وإما مال". [منهاج السنة (4 / 540 - 541)]

فالذي يصبر على الولاية أو المال الذي يستحقه، من أجل أن لا تسيل دماء المسلمين وتنقطع سبلهم وتتوقف مصالحهم أولى بالحمد ممن لا يُبصِر إلا مصلحة نفسه، ويسعى في تحقيقها وإن جرَّ ذلك إلى الفتن والمصائب والمحن.

ولهذا فرّق ابن تيمية بين قتال المحاربين أو قطاع الطريق، وبين قتال ولاة الأمور لطلب المال أو الولاية بأمرين:

الأول: أن قطاع الطريق ضررهم عام على جميع الناس؛ فهم يعادون جميع الناس، وجميع الناس يعينون على قتالهم. أي أن فتنتهم فتنة عامة.

الثاني: أنهم يبتدئون الناس بالقتال.

وهذا الفرق الثاني فرق مهم أيضًا؛ إذ إن أهل الحديث في قولهم هذا إنما عنوا مبادءة الولاة بالخروج بالسيف؛ إذ من شأن ولاة الأمور أنهم "لا يبتدئون بالقتال للرعية"، كما يقول ابن تيمية.

أما إذا اعتدى ولي الأمر بنفسه أو بجنوده ورجاله على حرمات المسلمين من دماء وأعراض، فهذا شأن آخر، ليس هو محل النظر في مسألة الخروج على ولي الأمر؛ إذ المقصود بالخروج الممنوع: مباداءتهم بالقتال.

فإذا أمر ولي الأمر بقتل رجل معصوم الدم ظلمًا وعدوانًا فإنه يُقتل به؛ فالمسلمون تتكافأ دماؤهم، ولا فرق بين دم ولي الأمر ودم أقل مسلم من الرعية؛ قال الإمام أبو عبد الله الشافعي رحمه الله: "وإذا أمر الإمامُ الرجلَ بقتل الرجل فقتله المأمور؛ فعلى الإمام القود إلا أن يشاء ورثة المقتول أن يأخذوا الدية ". [الأم (7/107)]

وفي مصنف الإمام عبد الرزاق الصنعاني رحمه الله تعالى: "باب في القود من السلطان"، روى فيه آثارًا عن السلف في هذا الباب، منها قول حبيب بن صهبان عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "ظهور المسلمين حِمى الله، لا تحلُّ لأحد، إلا أن يخرجها حدٌّ". قال حبيب: "ولقد رأيت بياض إبطه قائمًا يقيد من نفسه". [أخرجه عبد الرزاق برقم (18036)]

ولو فُرض أن ولي الأمر صال على حريم المسلمين فإن له أحكام الصائل، فيجب قتاله ودفعه بالأخف فالأخف، ويهدر دمه إذا قُتل خلال ذلك، شأنه شأن غيره، وإذا جس للكفار فإن له حكم الجاسوس -وقد ذهب بعض الأئمة إلى قتله- شأنه شأن غيره، لا يمنعه من ذلك اسم ولي الأمر ولا منصبه، وهكذا سائر الجنايات.

وهنا كلمة للإمام أبي بكر الآجري رحمه الله في كتاب الشريعة، قد يراها البعض مشكلة على ما تقدم وهي قوله: "ومن أُمِّر عليك من عربي أو غيره أسود أو أبيض أو عجمي فأطعه فيما ليس لله فيه معصية، وإن حرمك حقًّا لك، أو ضربك ظلمًا لك، أو انتهك عرضك، أو أخذ مالك؛ فلا يحملك ذلك على أن تخرج عليه بسيفك حتى تقاتله، ولا تخرج مع خارجي يقاتله، ولا تحرض غيرك على الخروج عليه، ولكن اصبر عليه".

فقد يستشكل البعض أمره بالصبر على انتهاك العرض، وهذا الإشكال يزول بفهم معنى انتهاك العرض؛ قال الأصمعي رحمه الله - كما نقله الأزهري في تهذيب اللغة -: "النهك أن تبالغ في العمل, وإن بالغت في شتم العرض قال: انتهك عرضه".

فليس المراد أن يصبر الإنسان على ولي الأمر إذا صال على حريمه وأراد انتهاك أعراضهن! هذا معلوم البطلان من الإسلام بالضرورة.

ثم إذا قلنا إن الأفعال المذكورة من الضرب وحرمان الحقوق وانتهاك العرض -بالمعنى المذكور آنفًا- وأخذ المال ليس فيها شيء موجب للخروج على ولي الأمر؛ فليس في ذلك ما يمنع من أن يقيم المجني عليه دعوى ضد ولي الأمر فيقتص منه؛ ففرق بين موجبات الخروج، وموجبات القصاص وغيره من العقوبات على الجنايات، وهذا أمر لا ينبغي أن يفوت من يروم فهم كلام الأئمة.

فأهل الحديث هم حفظة سنة النبي صلى الله عليه وسلم، والذابون عنها، ومقاصدهم شريفة نبيلة، ليس لهم غرض في دنيا أو مال حتى يحرفوا الشرع ليطابق مقاصد الولاة، والطاعنون في مذهبهم بمثل هذه الطعون أولى بالاتهام بسوء القصد وخبث الطوية.

واعلم أنني لم أقصد مما تقدم الدفاع عن نظام من الأنظمة العربية المعاصرة، حتى يعترض معترض بأنهم ليسوا ولاة أمور شرعيين، أو أنهم وكلاء للكفار على أموال المسلمين ومقدراتهم؛ فهذه مسألة أخرى، وإنما المقصود الذب عن مذهب أهل الحديث وتفهمه، وإذا استعمل بعض الناس هذا المذهب في الدفاع عن الأنظمة العربية المعاصرة لمقاصد دنيوية خسيسة فليس ذلك بموجب للقدح في نفس المذهب، والله تعالى أعلم.



كيف أكون أديبًا؟

البشير عصام

بسم الله الرحمن الرحيم

قد يبدو هذا السؤال غريبًا، فإن الأدب عند جمهرة الناس موهبة ربانية، لا سبيل إلى اكتسابها؛ فلا يصح السؤال إذن عن المنهج اللازم اتباعه لتكون أديبًا.

وهذا الكلام فيه قدر كبير من الحق، ولكنه يخفي وراءه قدرًا غير قليل من الباطل المستتر! فقد صارت دعاوى الموهبة سلاحًا قاتلًا للأدب من وجوه:

أصبح شداة الأدب يمتنعون عن القراءة والمران الأدبي، ويستعجلون الإبداع، بدعوى أن لديهم موهبة تبيح لهم ذلك. وصار أنصاف المتأدبين وضعفة المثقفين يعتلون المنابر الأدبية، ويسوّقون إنتاجًا أدبيًّا سخيفًا يمسخ الأذواق، ويطمس الأخلاق، لا لشيء إلا لأن لديهم - فيما يدّعون أو يُدّعى لهم - موهبة تغنيهم عن الاجتهاد والتحصيل.

جماع تحصيل الملكة الأدبية

اعلم أن اكتساب الملكة الأدبية لا يأتي إلا بعد مران كثير، واطلاع كبير، مع وجود حس أدبي لطيف، وذوق شاعري منيف.

فأما المران والاطلاع فسأخبرك بشيء مما ينبغي فعلُه لتحصيلها، وأما ما سواهما - وهو الموهبة - فهو - على كل حال - أمر رباني، وتوفيق إلهي، يصعب سبره وضبطه، ولا سبيل إلى اكتسابه، وإن كان من الممكن الدربة على الإحاطة ببعض أطرافه.

ولذلك قد يتبحر المرء في العلوم اللغوية، والمصنفات الأدبية، ولا يطاوعه لسانه على قول بيت واحد من الشعر، كما يذكر عن أبي علي الفارسي، إمام زمانه في علوم اللغة، خاصة في صنعة النحو والصرف:

قال أبو القاسم الأندلسي: جرى ذكر الشعر بحضرة أبي علي الفارسي وأنا حاضر، فقال: إني أغبطكم على قول الشعر؛ فإن خاطري لا يوافقني على قوله على تحقيقي في العلوم التي هي موادّه، فقال له رجل: فما قلت قط شيئًا منه؟ قال: ما أعلم أن لي شعرًا إلا ثلاثة أبيات في الشيب!



إذا علم هذا، فإن تكوين الأديب يمر - في نظري - على ثلاث مراحل:

- التكوين العلمي.
- والاطلاع الأدبي.
- والدربة النثرية والشعرية.

وهذه المراحل ليست مرتبة في الزمن، بل المتعين فعلها في آن واحد. فإنك لو أخرت التمرن مثلا إلى أن تستكمل بضاعتك من الاطلاع العلمي والأدبي، فسيضيع عليك الكثير من الوقت، الذي لا سبيل إلى استدراكه.

وهذا بيان لهذه المراحل:

المرحلة الأولى: التكوين العلمي

لا بد للأديب من أن يكون مطلعًا على مجموعة من العلوم اللغوية، وبعض العلوم الأخرى مما يدخل في ما يسمى الآن (الثقافة العامة).

فأما علوم اللغة، فلا مناص له من التمكن منها. ومن بدع العصر وآفاته القاتلة التي بها انحط الأدب، وكسدت سوقه: أن الأدباء صاروا ينطلقون إلى الكتابة الأدبية، وباعهم في اللغة ضعيف جدًّا. ولم يكن الأمر كذلك في القديم، بل كان الشعراء والخطباء يرحلون في طلب اللغة إلى مواطن الأعراب، ومشايخ الفصحى، يكرعون من مناهلهم. وقد كان أمثال المتنبي والمعري وابن الرومي أصحاب ثروة لغوية عظيمة جدًّا.

وأذكر أن أحد الطلبة عرض على شيخنا مصطفى النجار قصيدة من إبداعه، لينظر فيها وينقدها له، فسأله: هل درسة ألفية ابن مالك؟ فلما أجابه بالنفي، قال له: إذن لا أنظر في شعرك. أو كلامًا نحو هذا!

وبما أن العربية لا تنفك عن محضنها الأصلي الذي هو القرآن الكريم، وحديث النبي الأمين صلى الله عليه وسلم، فلا بد أن يشتغل طالب الأدب بهذين، وبالكتب والعلوم التي تدور عليهما، دون أن يطالب بالتخصص في ذلك.

وفي تاريخ الأدب العربي شواهد كثيرة، تدل على تأثر شعراء العربية الفحول وأدبائها المرموقين بالعبارة القرآنية والنبوية خصوصًا، وبعلوم الشريعة الإسلامية عمومًا، في تعبيراتهم الأدبية.

المرحلة الثانية: الاطلاع الأدبي

على طالب الأدب أن يكون صاحب اطلاع واسع على الإنتاج الأدبي العربي والعالمي، القديم والحديث. لأن الأديب لا يبدأ من فراغ، وإنما غايته أن يضع لبنات من صنعه، فوق بناء شامخ أقامه الأدباء من قبله. كما أن الاطلاع على إبداع الآخرين - خاصة من الفحول الراسخين - يصقل الموهبة، وينمي الملكة.

ويدخل في باب الاطلاع هذا ما يلي:

• حفظ جملة صالحة من أشعار العرب التي اتفق النقاد على أنها في ذروة التعبير الأدبي الراقي، مثل: المعلقات الجاهلية، وأكثر ديوان الحماسة والمفضليات والأصمعيات ونحوها، مع مختارات من شعر الفحول عبر تاريخ الأمة. وقد يغني في هذا الباب أن يحفظ الطالب كتاب (المنتخب من أدب العرب)؛ فإن فيه زبدة الشعر العربي الراقي.

• قراءة الدواوين المعروفة، خاصة في العصر العباسي؛ مثل دواوين المتنبي والبحتري وأبي تمام والمعري والشريف الرضي وما أشبهها. ثم دواوين بعض شعراء النهضة الحديثة مثل البارودي وشوقي وحافظ وبعض شعراء مدرسة الشام.

• إدمان النظر في كتب الأدب الأصلية المشهورة، مثل: أغاني الأصبهاني، وكامل المبرد، وأمالي القالي، وأدب الكاتب لابن قتيبة، والبيان والتبين للجاحظ.

• قراءة مؤلفات كبار أدباء العربية من القدامى والمحدثين، وعلى رأس المتقدمين: الجاحظ وابن المقفع والتوحيدي. وعلى رأس المحدثين: الرافعي ومحمود شاكر والمنفلوطي والعقاد وغيرهم.

• قراءة كتب الأدب الموسوعية الجامعة، مثل: زهر الآداب للحصري، وصبح الأعشى للقلقشندي، ونهاية الأرب للنويري، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ونحوها.

• قراءة ما تيسر من الأدب العالمي، خاصة في مجال القصة والرواية، فإنه ميدان أبدع فيه الغربيون، وليس هو من صميم أدبنا العربي.

المرحلة الثالثة: المران والتدريب

أما التمرن على الكتابة نثرًا وشعرًا، فله طرق متعددة، منها:

• محاكاة أسلوب كاتب معين، بعد الاطلاع على ما تيسر من كتاباته. وأحرى الكتاب بالمحاكاة من كان ذا أسلوب متميز الخصائص، في ألفاظه وتراكيبه ومعانيه؛ كالجاحظ من المتقدمين، والرافعي من المحدثين.

• أن تعمد إلى كلام منثور يحمل معنى لطيفًا، فتنظمه. أو بالعكس، أن تنثر قصيدة أو نتفة شعرية.

• أن تأخذ نصًّا نثريًّا فتقرأه بترو وتمعن، ثم تشيح نظرك عنه وتعيد كتابته بأسلوبك.

• أن تعيد كتابة نص شعري بعد تغيير قافيته أو بحره، أو تغييرهما معًا.

• أن تلزم نفسك بكتابة خواطر أو مقالات دورية (كل يوم أو كل أسبوع)، في معاني الحياة التي تحيط بك، على طريقة (فيض الخاطر) لأحمد أمين.

وعلى الطالب أن يعرض ما يكتبه على أهل الاختصاص، ليقوموا الاعوجاج، ويرشدوا إلى مواضع الإصلاح. ثم لا بد مع هذا كله من همة عالية، ووقت طويل، وجهد كبير.

والله الموفق.



صراع مع الشمس

عمرو بسيوني

تلك الأضواء الخافتة المشتتة، من هناك..
ليست كافية لإنارة أي شيء في الحقيقة، لكن يكفي أنه أدرك أنها موجودة، وأنها من هناك..
حتى إن كرمش جفنيه، في محاولة خائبة لتشتيت حُزَمِها، لعلها تزداد استنارة وإنارة..
حطت به السفينة، لم يكن في السماء قمر.

هل هذا صوت البحر، أم قرقعة أخشاب السفينة، أم اضطراب ضلوعه في لهاث صدره المسرع خلف عينيه الدامعتين؟ .

البحر يلمع، في غير ضوء، فيزداد سوادًا، والأضواء الخافتة من هناك لا تبدد الظلام.
كثير من العناء يتوجب بذله لتقوم على قدميك، ولتذكر نفسك في كل لحظة أن هناك ضوءًا، وأن هناك عينين.
عندما استغرب نفسه أول مرة عندما ركب السفينة؛ بذل نفس العناء لينسى أن هناك بحرًا، وأن هناك سفينة.

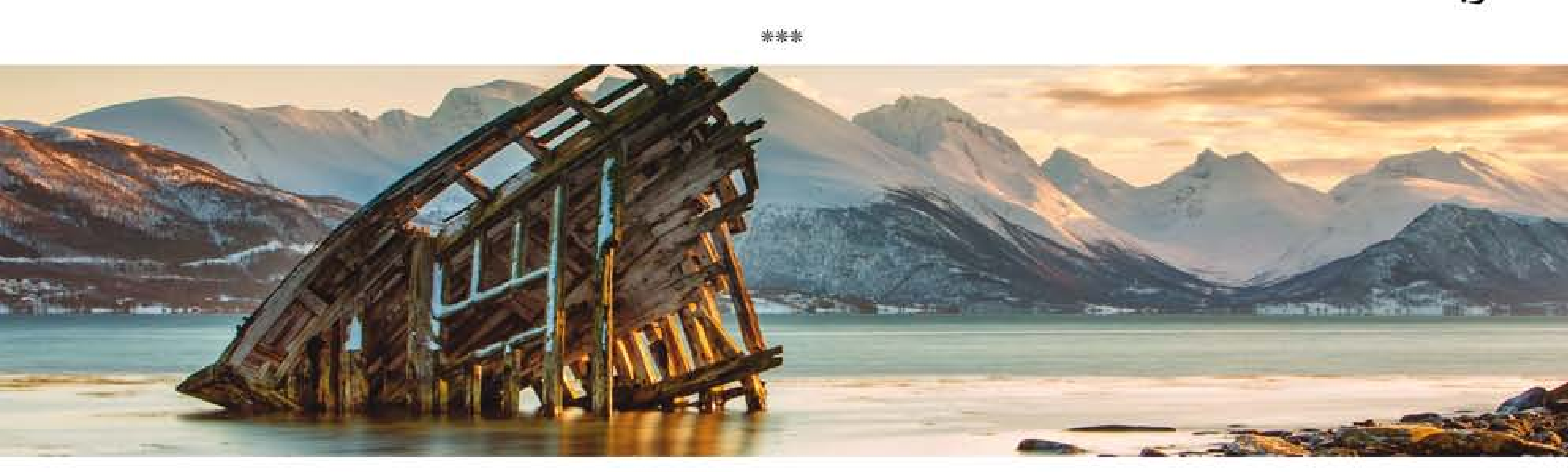
لا يعرف البحارة، ولا البحر، ولا الإبحار، لكنه رغب أن يركب السفينة، ليصل لذلك القرص الدامي المنير، الغارق في البحر دون أن ينطفئ!

أيجوز أن يكون ذلك الضوء الخافت، من هناك، من أنفاس ذلك القرص البعيد؟
لكنّ الآخرَ كان غارقا في البحر، الذي هو خلفه!! ماذا أتى به إلى هنا، يقصد هناك.
ليس بالضرورة أن يتعقل هذا الأمر، فهو لم يتعقل أول مرة حين ركب البحر ليقتنص القرص!

السفينة صارت حطامًا، والبحر انجزرت أمواجه جدًّا، صار أبعد من أن يخاض.
ثم إنه لم يكن يعرف يسبح أصلًا!
ليس إلا المضيُّ للضوء، الآتي من هناك.

الاحتمال الأكبر أنه لن يقدر أن يصل، وأنت نفسك لا تحبذ له المسير، عبثًا دون جدوى، لكنه سيمضي له حتمًا، ربما يصل، وربما يهلك، وربما يستيقظ.
ربما تنبت له الأرض سفينة!
أو شمسًا!
ربما!

***



ـ دعني أصارحك أنه كان أحمق، بشدة، عندما جرى خلف ذلك القرص اللعين، على سبيل المثال: أنا حاليًا في وضع جيد، وأجلس على الشاطئ.. لا أخوض البحر، ربما أصف قدميّ فيه، وأستمتع بالقرص فوق رأسي، يأتيني، وآخذ منه حاجتي، ولا أذهب إليه.

* لكن هذا القرص سيغادر مرة أخرى، ويغوص في البحر، ويحل الظلام، وستبرد رجلاك هاتان!

ـ من قال إنه يغرق؟ قد كان صاحبنا واهمًا، هو يذهب، ويرجع، هكذا دائمًا.

* وما أدراك الآن أن القرص سيأتيك مرة أخرى، أنت تتسم - كصاحبك - بالإيمان المطلق بكل أوهامك على ما يبدو!

ـ ليكن! ما يعنيني أنني أشعر بالراحة، ليس لأنني لم أركب البحر كصاحبي فحسب، ولكن لأنني أشعر أنني لست أحمق!

* جيد أن تشعر أنك لست أحمق.